إعجاز سورة الكوثر

للإمام جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري
"المتوفى سنة ٥٣٨هـ"

إنا أعطيناك الكوثر

تحقيق
حامد الخفاف

دار البلاغة

إعجاز سورة الكوثر

إعجاز سورة الكوثر

للإمام جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري
"المتوفى سنة ٥٣٨هـ"

تحقيق
حامد الخفاف

دار البلاغة

الطبعَة الأولىَ

١٤١١هـ - ١٩٩١م

دار البلاغة للطباعة والنشر والتوزيع .

هاتف وفاكس: ٣١٧٤٢٥ - ٨٢٠٣٢٠ - ٨٣٤٢٦٥ - ص.ب: ٢٥/١٦ - تلكس: ٢٢٥٩٧ بلاغ - بيروت - لبنان

الإهداء

إلى :

مَنْ أرْضَعَتْنِي حبّ الخير لَبَنَا

وغَذَّتْنيه طعاما . . .

فنشأتُ :

أعشقُ النورَ والابتسامة والربيع . . ،

المجاهدة الكبيرة في حقّي وحقّ إخوتي

إلى والدتي

أُهدي هذا الجهد المتواضع

قُبْلَةً على قَدَمَيْهَا ، عِرْفاناً ووفاءً .

حامد

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

مما لا مجال للشكّ فيه أنّ عهد نزول القرآن في حياة العرب يمثّل ذروة اهتمام المجتمع القبلي في الجزيرة العربيّة ببلاغة الكلمة وفصاحة المنطق ودقّة الحسّ البياني ، أكثر من أيّ وقت مضى ، فليس غريباً عنّا ما كانت تُوليه القبيلة من احترام وتقدير لأصحاب اللسان الماشق والحسّ المرهف ، فترى الشاعر سيف القبيلة الناطق ، الذي تجرّده بوجه أعدائها ، وتقدّمه درعاً واقياً يردّ عنها سهام الكلام ، حتّى أنّ أبياتاً من الشعر تحوي من قارص الكلم أشدّه يمكن أن تفعل فعلها أشدّ من السنان وأمضى من المهنّد المصقول .

وذاك سوق عكاظ ، نادي الأُدباء العرب ـ إن صحّ التعبير ـ يجتمعون فيه ، لتتصارع الكلمة في حلبة البلاغة ، وليتبارز البيان بسيوف الفصاحة ، تُشدّ إليه الرحال ، وتُعْقَدُ عليه الآمال ، كلّ ذلك كان يعمّق في الجزيرة العربية حقيقة كونها مجتمع الكلمة الذي لم يعرف اللحن له طريقاً ، ولا العجمة سبيلاً .

وجاء القرآن ، كلام الله المجيد ، ينشر من أريجه عطر القداسة ،

ويضمّ بين دفّتيه ما يحيّر العقول ، ويأخذ بالألباب ، اُنظروا إلى **عدوّ الله** الوليد بن المغيرة المخزومي ، فاغراً فاه ، يتمتم بحيرة : «والله لقد نظرت فيما قال هذا الرجل فإذا هو ليس بشعر ، وإنّ له لحلاوة ، وإنّ أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمعذق ، وإنّه ليعلو وما يُعلى» .

جاء ليتحدّى كبرياء الكلمة في عقر دارها ، وشموخ البيان في عنفوانه : ﴿**قل لئن اجتمعت الإنس والجنّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً**﴾ ، فكانت المعجزة التي ألقت لها الفصاحة قيادها ، وكأنّ دولة البلاغة العظمى كانت تنتظر ملكها بلهفة وشوق ، وهكذا كان .

وكتابنا الصغير هذا ، جواب من الزمخشري ـ رجل البلاغة والفصاحة ـ على عدّة إشكالات ، وردت من صديق له حول إعجاز القرآن ، بصورة رسالة بعثها إليه ، سائلاً إيّاه الإجابة فتصدّى المؤلف للجواب عنها ، بأُسلوبه الشيّق الرفيع ، برسالة حول إعجاز سورة الكوثر ، هي كما قال عنها : «رسالة من أبلغ الرسالات ، أُورد فيها مقدّمة في إعجاز القرآن الكريم ، في فضل اللسان العربي على كلّ لسان ، على وجه عجيب ، وأُسلوب على طرف الثمام قريب غريب» مضيفاً بذلك للمكتبة الإسلامية جهداً رائعاً يشار إليه بالبَنان ، حاولنا أن نضفي عليه بتحقيقنا إيّاه من روعة الإخراج ما نتمكّنه ، ومن متطلّبات التحقيق ما يحتاجه .

وكنت فيما سبق قد نشرتُ هذه الرسالة في مجلة «تراثنا» الموقرة ، العدد الثالث عشر ، التي تصدرها مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث ، ثم تبنّى الأخوة الأعزاء في دار البلاغة إحياء هذا الأثر النفيس مستقلاً ، فأعدت النظر فيه مصححاً ، وراجعته منقّحاً ، مستهدفاً بذلك أن لا أبخس الكتاب حقّه ضبطاً وتعليقاً ، والله ولي التوفيق .

ترجمة المؤلف

هو العلاّمة جار الله أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الزمخشري الخوارزمي ، كبير المعتزلة ، صاحب الكشّاف والمفصّل[1] ، أمره في الاشتهار أوضح من الشمس وأبْيَن من الأمس .

(١) توجد ترجمته في : الأنساب ٦ : ٢٩٧ ، معجم البلدان ٣ : ١٤٧ ، معجم الأدُباء ١٩ : ٤١/١٢٦ ، الكامل في التاريخ ١١ : ٩٧ ، إنباه الرواة ٣ : ٧٥٣/٢٦٥ ، وفيات الأعيان ٥ : ٧١١/١٦٨ ، ميزان الاعتدال ٤ : ٨٣٦٧/٧٨ ، العبر ٢ : ٤٥٥ ، سير أعلام النبلاء ٢٠ : ٩١/١٥١ ، تذكرة الحفّاظ ٤ : ١٢٨٣ ، المستفاد من ذيل تاريخ بغداد : ١٧٣/٢٢٨ ، مرآة الجنان ٣ : ٢٦٩ ، البداية والنهاية ١٢ : ٢١٩ ، لسان الميزان ٦ : ٤ ، بغية الوعاة ٢ : ١٩٧٧/٢٧٩ ، طبقات المفسّرين ١٢٧/١٠٤ ، طبقات المفسّرين للداودي ٢ : ٦٢٥/٣١٤ ، شذرات الذهب ٤ : ١٢١ ، روضات الجنات ٨ : ٧١١/١١٨ ، الكنى والألقاب ٢ : ٢٩٧ ، هدية العارفين ٢ : ٤٠٢ ، وعن هامش السير : نزهة الألبّاء : ٣٩١ ، المختصر في أخبار البشر ٣ : ١٦ ، إشارة التعيين : الورقة ٥٣و٥٤ ، البدر السافر : ورقة ١٩٣ ، تاريخ الإسلام : وفيات ٥٣٨ ، دول الإسلام ٢ : ٥٦ ، تلخيص ابن مكتوم : ٢٤٣ ، الجواهر المضيّة ٢ : ١٦٠ ، العقد الثمين ٧ : ١٣٧ ، طبقات المعتزلة : ٢٠ ، طبقات ابن قاضي شهبة ٢ : ٢٤١ ، النجوم الزاهرة ٥ : ٢٧٤ ، تاج التراجم : ٧١ ، طبقات الفقهاء لطاش كبرى : ٩٤و٩٥ ، مفتاح السعادة ٢ : ٩٧ ، أزهار الرياض ٣ : ٢٨٢ ، الفوائد البهيّة : ٢٠٩ ، كنوز الأجداد : ٢٩١ ، تاريخ بروكلمان ٥ : ٢١٥ .

ولادته وبلده :

ولد الزمخشري في يوم الأربعاء السابع والعشرين من رجب سنة سبع وستين وأربعمائة بزمخشر خوارزم ، على ما نقله القفطي عن ابن اخته أبي عمر عامر بن الحسن السمساري[٢] ، وقال أيضاً : «ونقلت من كتاب محمد بن محمد بن حامد قال : كان مولده ـ يعني الزمخشري ـ في سابع عشر شهر رجب سنة سبع وستّين وأربعمائة»[٣] .

يقول الزمخشري : «وأمّا المولد فقرية من قرى خوارزم مجهولة ، يقال لها : زمخشر ، سمعت أبي قال : اجتاز بزمخشر أعرابي فسأل عن اسمها واسم كبيرها ، فقيل له : زمخشر والردّاد ، فقال : لا خير في شرّ ورد ، ولم يلمم بها»[٤] .

وزَمَخْشَر ـ بفتح أوّله وثانيه ، ثمّ خاء معجمة ساكنة ، وشين معجمة ، وراء مهملة ـ : قرية جامعة من نواحي خوارزم[٥] ، وقال القفطي : سمعت بعض التجار يقول : إنّها دخلت في جملة المدينة ، وإنّ العمارة لمّا كثرت وصلت إليها وشملتها ، فصارت من جملة محالّها[٦] .

وقال فيها الشريف أبو الحسن علي بن عيسى بن حمزة الحسني المكّي عند مدح الزمخشري :

جميع قرى الدنيا سوى القرية التي   تبوأها داراً فداء زمخشرا

---

(٢) إنباه الرواة ٣ : ٢٦٦ .
(٣) إنباه الرواة ٣ : ٢٧١ .
(٤و٥) معجم البلدان ٣ : ١٤٧ .
(٦) إنباه الرواة ٣ : ٢٦٥ .

وأحرِ بأنْ تَزهى زمخشرُ بامرىءٍ   إذا عد في أسْد الشرى زمخ الشرى(٧)

وبعد نشوئه تنقل الزمخشري في بلدته يجوب الأقطار طلباً للعلم وسعياً وراء المعرفة ، فطاف الآفاق وتنقّل ما بين بغداد ونيسابور ، ثمّ أقام بمكّة المكرّمة ، ولذلك لقّبَ نفسه جار الله لمجاورته البيت العتيق ، وكان أين ما حلّ وارتحل محلّ احترام وتقدير .

مكانته العلميّة :

يعتبر الزمخشري شخصية بارزة في عالم الفصاحة والبلاغة والأدب والنحو ، نتلمّس ذلك جلياً في مصنفاته وآثاره من جهة ، ومن إطراء وتبجيل كلّ من ترجم له من جهة أُخرى .

يقول القفطي : وذكره صاحب الوِشاح ـ ذكره بألقاب وسجع له على عادته ـ فقال : «أُستاذ الدنيا ، فخر خوارزم ، جار الله العلاّمة أبو القاسم محمود الزمخشري ، من أكابر الأُمّة ، وقد ألقت العلوم إليه أطراف الأزمّة ، واتّفقت على إطرائه الألسنة ، وتشرّفت بمكانه وزمانه الأمكنة والأزمنة ، ولم يتمكّن في دهره واحد من جلاء رذائل النظم والنثر ، وصقال صوارم الأدب والشعر ، إلاّ بالاهتداء بنجم فضله ، والاقتداح بزند عقله ، ومن طار بقوادم الانصاف وخوافيه ، علم أن جواهر الكلام في زماننا هذا من نثار فيه ، وقد ساعده التوفيق والاقبال ، وساعفه من الزمان الماضي والحال ، حتّى اختار لمقامه أشرف الأماكن ، وجمع بجوار بيت الله الحرام بين الفضائل والمحاسن ، وودع أفراس الأُمور الدنياوية ورواحلها ، وعاين من بحار الخيرات والبركات سواحلها ، وقد صغر في

---

(٧) إنباه الرواة ٣ : ٢٦٨ .

عيون أفاضل عهده ما رأوه ورووه ، وملك في قلوب البلغاء جميع ما رعوه ووعوه ، وإنْ كان عدد أبياته التي ذكرتها قليلاً فكماله صار عليها دليلاً»[٨] .

ولمّا قدم الزمخشري إلى بغداد قاصداً الحجّ زاره الشريف أبو السعادات هبة الله بن الشجري مهنّئاً له بقدومه ، فلمّا جلس إليه أنشده متمثّلاً :

كانت مُساءلة الركبان تخبرني عن أحمد بن دواد أطيب الخبرِ
حتى التقينا فلا والله ما سمعتْ أُذني بأحسن ممّا قد رأى بصري

وأنشد أيضاً :

وأستكبر الأخبار قبل لقائه فلمّا التقينا صَغَّرَ الخَبَرَ الخُبْرُ[٩]

وكان الزمخشري ممّن يضرب به المثل في علم الأدب والنحو واللّغة[١٠] ، وما دخل بلداً إلاّ واجتمعوا عليه وتلمّذوا له ، واستفادوا منه ، وكان علاّمة الأدب ، ونسّابة العرب ، تُضرب إليه أكباد الإبل ، وتُحطّ بفنائه رحال الرجال ، وتُحْدى باسمه مطايا الآمال[١١] .

وقال ياقوت : كان إماماً في التفسير والنحو واللّغة والأدب ، واسع العلم ، كبير الفضل ، متفنّناً في علوم شتى[١٢] .

(٨) إنباه الرواة ٣ : ٢٦٨ .
(٩) معجم الأُدباء ١٩ : ١٢٨ .
(١٠) الأنساب ٦ : ٢٩٧ .
(١١) طبقات المفسّرين للسيوطي : ١٠٥ ، إنباه الرواة ٣ : ٢٦٦ .
(١٢) معجم الأدُباء ١٩ : ١٢٦ .

ولا نُريد الإطالة في سرد العبارات الواردة في مدح المصنف والثناء عليه ، ففي ما ذكرناه كفاية لمن يقنع بالتلميح عن التصريح .

مؤلفاته :

١ ـ الكشّاف في تفسير القرآن .
٢ ـ الفائق في غريب الحديث .
٣ ـ نكت الأعراب في غريب الإعراب ، في غريب إعراب القرآن .
٤ ـ كتاب متشابه أسماء الرواة .
٥ ـ مختصر الموافقة بين أهل البيت والصحابة .
٦ ـ الأصل ، لأبي سعيد الرازي إسماعيل .
٧ ـ الكلم النوابغ ، في المواعظ .
٨ ـ أطواق الذهب ، في المواعظ .
٩ ـ نصائح الكبار .
١٠ ـ نصائح الصغار .
١١ ـ مقامات في المواعظ .
١٢ ـ نزهة المستأنس .
١٣ ـ الرسالة الناصحة .
١٤ ـ رسالة المسامة .
١٥ ـ الرائض في الفرائض .
١٦ ـ معجم الحدود .
١٧ ـ المنهاج في الأُصول .
١٨ ـ ضالّة الناشد .
١٩ ـ كتاب عقل الكل .
٢٠ ـ النموذج ، في النحو .

٢١ ـ المفصّل ، في النحو .
٢٢ ـ المفرد والمؤلف ، في النحو .
٢٣ ـ صميم العربيّة .
٢٤ ـ الأمالي في النحو .
٢٥ ـ أساس البلاغة ، في اللغة .
٢٦ ـ جواهر اللغة .
٢٧ ـ كتاب الأجناس .
٢٨ ـ مقدّمة الأدب ، في اللغة .
٢٩ ـ كتاب الأسماء ، في اللغة .
٣٠ ـ القسطاس ، في العروض .
٣١ ـ حاشية على المفصّل .
٣٢ ـ شرح مقاماته .
٣٣ ـ روح المسائل .
٣٤ ـ سوائر الأمثال .
٣٥ ـ المستقصى ، في الأمثال .
٣٦ ـ ربيع الأبرار ، في الأدب والمحاضرات .
٣٧ ـ تسلية الضرير .
٣٨ ـ رسالة الأسرار .
٣٩ ـ أعجب العجب في شرح لاميّة العرب .
٤٠ ـ شرح المفصّل .
٤١ ـ ديوان التمثيل .
٤٢ ـ ديوان خطب .
٤٣ ـ ديوان رسائل .
٤٤ ـ ديوان شعر .

٤٥ ـ شرح كتاب سيبويه .

٤٦ ـ كتاب الجبال والأمكنة .

٤٧ ـ شافي العي من كلام الشافعي .

٤٨ ـ شقائق النعمان في حقائق النعمان ، في مناقب الإمام أبي حنيفة .

٤٩ ـ المحاجاة ومتمّم مهام أرباب الحاجات ، في الأحاجي والألغاز .

٥٠ ـ المفرد والمركّب ، في العربية[١٣] .

٥١ ـ رسالة في إعجاز سورة الكوثر ، وهي الرسالة التي بين يديك .

تلامذته والرواة عنه :

يظهر ممّا ذكره القفطي في إنباه الرواة : «وما دخل بلداً إلاّ واجتمعوا عليه وتلمّذوا له»[١٤] كثرة تلاميذه وانتشارهم باعتبار كثرة سفره وتجواله في الأقطار ، نذكر منهم ما استطعنا العثور عليه خلال استقراء عاجل لمظانّ ترجمته :

١ ـ أبو المحاسن إسماعيل بن عبدالله الطويلي .

٢ ـ أبو المحاسن عبد الرحيم بن عبدالله البزاز .

٣ ـ أبو عمر عامر بن الحسن السمسار .

٤ ـ أبو سعد أحمد بن محمود الشاشي .

---

(١٣) أنظر معجم الأدباء ١٩ : ١٣٤ ، وفيات الأعيان ٥ : ١٦٨ .

(١٤) إنباه الرواة ٣ : ٢٦٦ .

٥ ـ أبو طاهر سامان بن عبد الملك[١٥] .

٦ ـ الشيخ علي بن محمد الخوارزمي .

٧ ـ الشيخ محمد بن أبي القاسم بن ياجوك البقالي الخوارزمي اللغوي .

٨ ـ الشيخ أبو الفتح ناصر بن عبد السيد بن المطرز[١٦] .

شيوخه وأساتذته ومن سمع منهم :

١ ـ أبو مضر محمود بن جرير الضبي الأصبهاني .

٢ ـ أبو الحسن علي بن المظفّر النيسابوري .

٣ ـ شيخ الإسلام أبو منصور نصر الحارثي .

٤ ـ أبو سعد الشقاني[١٧] .

٥ ـ أبو الخطّاب بن البطر[١٨] .

شعره :

ورد شعر الزمخشري متفرّقاً في المصادر التي تعرّضت لترجمته ، فحاولنا جهد الإمكان أن نجمع شتات ما استطعنا العثور عليه فيها من الأبيات الشعرية سواء كان قطعيّ الصدور عنه أو كان منسوباً إليه، ونذكر مع كلّ قطعة شعريّة مصدر النقل :

---

(١٥) الأنساب ٦ : ٢٩٨ .

(١٦) روضات الجنّات ٨ : ١٢٣ .

(١٧) معجم الأدُباء ١٩ : ١٢٧ .

(١٨) العبر ٢ : ٤٥٥ ، المستفاد من ذيل تاريخ بغداد : ٢٢٨ .

قال الزمخشري :

العلم للرحمن جلّ جلالهُ ... وسواه في جهلاته يتغمغمُ
ما للتراب وللعلوم وإنّما ... يسعى ليعلم أنّه لا يعلمُ

وقال أيضاً :

كثر الشكُّ والخلافُ وكلٌ ... يدّعي الفوز بالصراط السويّ
فاعتصامي بلا إلٰه سواهُ ... ثمّ حبّي لأحمد وعليّ
فاز كلبٌ بحبِّ أصحاب كهفٍ ... كيف أشقى بحبِّ آلِ نبيّ ؟!

وقال في مدح تفسير الكشّاف :

إنّ التفاسير في الدنيا بلا عددٍ ... وليس فيها لعمري مثل كشّافي
إنْ كنتَ تبغي الهدى فالزم قراءته ... فالجهلُ كالداءِ والكشّافُ كالشافي(١٩)

وقال يرثي أُستاذه أبا مضر النحوي :

وقائلةٍ ما هذه الدررالتي ... تُساقطها عيناك سمطين سمطينِ
فقلت هو الدُرُّ الذي قد حشابه ... أبو مضر أُذني تساقط من عيني(٢٠)

وقال أيضاً يرثيه :

أيا طالبَ الدنيا وتارك الأُخرى ... ستعلم بعد الموت أيّهما أحرى
أَلَمْ يقرعوا بالحقّ سمعك؟! قل: بلى ... وذكِّرت بالآيات لو تنفع الذكرى
أما وقر الطيش الذي فيك واعظ ... كأنّك في أُذنيك وقرٌ ولا وقرا
أَمِنْ حجر صَلْدٍ فؤادك قسوة ... أم الله لم يودعك لبّاً ولا حِجْرا

---

(١٩) معجم الأُدباء ١٩ : ١٢٩ .

(٢٠) معجم الأُدباء ١٩ : ١٢٤ ، إنباه الرواة ٣ : ٢٦٧ .

وما زالَ موتُ المـرءِ يخرب دارَهُ وموتُ فريدِ العصرِ قد خَرَّبَ العَصرا
وصك بمثل الصخـر سمعي نعيه فشبهت بالخنساء إذ فقدت صخرا(٢١)

وقال أيضاً :

إذا سألوا عن مـذهبي لم أبح بـه وأكتمـه ؛ كـتمـانــه لـي أسلمُ
فـإن حنفيّـاً قلت ، قـالـوا بـأنّني أُبيح الطلا وهو الشراب المحـرّمُ
وإن مـالكياً قلت ، قـالـوا بـأنّني أُبيـح لهم أكل الكـلاب وهم همُ
وإن شـافعياً قلت ، قـالـوا بـأنّني أُبيـح نكـاح البنت والبنت تحـرمُ
وإن حنبلياً قلت ، قـالـوا بـأنّني ثـقيـل حـلوليّ بـغيض مـجسِّـمُ
وإن قلتُ من أهل الحديث وحزبه يقـولون تيسٌ ليس يـدري ويفهمُ
تعجبت من هـذا الـزمــان وأهلهِ فما أحدٌ من ألسنِ النـاسِ يسلمُ
وأخّــرني دهـري وقــدّم معشـرا على أنّهم لا يعلمــون وأعلمُ(٢٢)

وله أيضاً :

سهــري لتنقيـح العلوم ألــذّ لي من وَصْــل غـانيـةٍ وطيب عنـاقِ
وتمـايلي طـربـاً لحـلّ عــويصةٍ أشهى وأحلى من مـدامـة ســاقِ
وصــريـر أقــلامي على أوراقهـا أحلى من الــدوكـاء والـعشّــاقِ
وألــذّ من نقــر الفتــاة لــدفّهـا نقـري لألقي الـرمـل عن أوراقي
أأبيت سهــران الــدجى وتبيتــه نـومـاً وتبغي بعـد ذاك لحاقي(٢٣)

وقال أيضاً :

ألا قُل لسعدى ما لنا فيك من وطر وما تطيبنـا النجْلُ من أعين البقـرْ

---

(٢١) إنباه الرواة ٣ : ٢٦٧ .
(٢٢) مقدمة الفائق ١ : ٩ .
(٢٣) مقدّمة الفائق ١ : ٨ .

فـإنّا اقتصـرنـا بـالـذين تضـايقت	عيـونهم والله يجـزي من اقتصـرْ
مليـح ولكن عنـده كـلّ جفـوة	ولم أر في الدنيا صفـاءً بلا كـدرْ
ولم أنس إذ غـازلته قـرب روضةٍ	إلى جنب حوضٍ فيه للماء منحدرْ
فقلت لـه : جئني بـورد وإنّمـا	أردت بـه ورد الخدود ومـا شعـرْ
فقال : انتظرني رجع طرف أجيء به	فقلت لـه : هيهات مـا في منتظرْ
فقال : ولا ورد سوى الخدّ حاضر	فقلت له : إنّي قنعت بما حضرْ(٢٤)

وله أيضاً :

لا تـلمنـي إذا وقيـت الأواقـي	فـالأواقي لمـاء وجهي أواقي(٢٥)

وقال أيضاً في ذمّ متابعة النساء :

اعصِ النساءَ فتلك الطاعة الحسنهْ	ولن يسود فتى أعطى النسـا رسنهْ
تعـوقـه عن كمـالٍ في فضـائله	ولو سعى طالباً للعلم ألفَ سنهْ(٢٦)

وممّا ينسب إليه قوله :

تزوّجت لم أعلم وأخطأت لم أصب	فيـا ليتني قـد متّ قبـل التزوُّج
فوالله ما أبكي على ساكني الثرى	ولكنّني أبـكي عـلى المتزوِّجِ(٢٧)

وينسب له في مدح الخمول :

اطلب أبـا القـاسم الخمـولَ ودعْ	غيـرك يـطلب أسـاميـاً وكـنى
شبّـه ببعض الأمـوات نفسـك لا	تبـرزه إنْ كنتَ عـاقـلاً فـطنـا

---

(٢٤) وفيات الأعيان ٥ : ١٧٢ ، سير أعلام النبلاء ٢٠ : ١٥٥ ، وقال الذهبي مُعَلّقاً : هذا شعر ركيك لا رقيق .
(٢٥) روضات الجنّات ٨ : ١٢٦ .
(٢٦) روضات الجنّات ٨ : ١٢٧ .
(٢٧) روضات الجنّات ٨ : ١٢٧ .

ادفنـه في البيـت قبـل ميتتـه   واجعـل لـه من خمـولـه كفنـا
علّك تـطفي مـا أنت مـوقـده   إذ أنت في الجهل تخلع الرسنا(٢٨)

ومن شعره :

أقـول لظبي مـرّ بي وهـو راتـع :   أأنت أخـو ليلى ؟ فقـال : يقـالُ
فقلت : وفي حكم الصبابة والهوى   يقالُ : أخو ليلى ؟ فقـال : يُقالُ
فقلت : وفي ظلّ الأراكة والحمى   يقالُ : ويستسقى ؟ فقال : يقالُ(٢٩)

وقال أيضاً :

لا بُـدّ في غفلةٍ يعيش بهـا الـ   ـمـرءُ وإلاّ فـعـيـشُـهُ كَـدَرُ
أمـا رأيتَ الصحيحَ يؤلمـه   مـا لا يبـالي بمثِلهِ الحَـذِرُ

وله أيضاً :

أشمـال ويحـك بلّغي تسليمي   مـن ليس يبلغـه لنـا تسـليم
مـرّي بـه وتعلّقـي بـردائـه   ليكـون فيـك من الحبيب نسيم
قـولي له : مـا بال قلبك قاسياً   ولقـد عهـدتـك بي وأنت رحيم
إنّـي أجلّك أن أقـول ظَـلَمْتـني   والله يـعـلم أنّـني مـظلوم(٣٠)

وأجاب الزمخشري الأمير شبل الدولة أبو الهيجاء مقبل بن عطيّة البكري الذي مدحه بعدّة أبيات فقال :

شعـره أمـطر شعبي شـرفـاً   فـاعتلى منـه نبـات الجسـد
كيف لا يستـاسـد النبت إذا   بـات مسقيـاً بنـوء الأسـد

---

(٢٨) الكنى والألقاب ٢ : ٢٦٨ .
(٢٩) شذرات الذهب ٤ : ١٢١ .
(٣٠) إنباه الرواة ٣ : ٢٧٠ .

وقال أيضاً في قصيدة طويلة يمدح بها الوزير مجير الدولة الأردستاني :

أيا حبذا سعدى وحُبّ مقامها   ويا حبذا أين استقلّ خيامها
حياتي وموتي قرب سعدى وبعدها   وعزّي وذلّي وَصْلها وانصرامها
سلام عليها أين أمست وأصبحت   وإن كان لا يُقْرا عليّ سلامها
رعى الله سرحاً قد رعى فيه سرحها   وروّض أرضاً سام فيه سوامها
إذا سحبت سُعدى بأرضٍ ذيولها   فقد أرغم المسك الذكيّ رغامها
وإن مايست قضبان بانٍ رأيتها   تنكّس واستعلى عليها قوامها(٣١)

قال القفطي : وأنشدني أفضل الدين أميرك الزبياني له من قصيدة فيها :

يفوح كفوح المسك فاغِمُ نشرها   إذا التحبت فيها ذلاذِلُ ريح
يقول لها الطش السماويّ والصبا   مقيماً على تلك الصبابة فوحي
مضاجع سعدان مغارس حنوة   مناجم قيصوم منابت شيح
اذا ملح المكّاء رَجْعُ صغيره   يجاوبُه قمريّها بمليح
كأنّ بُدَيحاً والغريض تطارحا   على وترٍ للموصليّ فصيح(٣٢)

عقيدته :

أطبقت المصادر التي تعرّضت لترجمة المصنّف أنّه كان حنفيّ المذهب معتزليّ العقيدة ، ويقال انّه لمّا صنّف كتابه الكشّاف استفتح الخطبة بالحمد لله الذي خلق القرآن . فقيل له : متى تركته على هذه

---

(٣١) إنباه الرواة ٣ : ٢٦٧ .
(٣٢) إنباه الرواة ٣ : ٢٦٩ .

الهيئة هجره الناس فغيّره بالذي أنزل القرآن ، وقيل : هذا اصطلاح الناس لا اصطلاح المصنّف[٣٣] .

يقول فيه الذهبي : «صالح ، لكنّه داعية إلى الاعتزال ، أجارنا الله ، فكن حذراً من كشّافه»[٣٤] .

وقال ابن كثير : «وكان يظهر مذهب الاعتزال ، ويصرّح بذلك في تفسيره ويناظر عليه »[٣٥] .

ويظهر أنّ الزمخشري كان يعتدُّ بما يذهب إليه كثيراً ، فقد ذكر ابن العماد الحنبلي ما لفظه : «وكان الزمخشري معتزليّ الاعتقاد متظاهراً به حتّى نُقل عنه أنّه كان إذا قصد صاحباً له واستأذن عليه في الدخول ، يقول لمن يأخذ له الإذن ، قل له : أبو القاسم المعتزلي بالباب»[٣٦] .

إلّا أنّ الأمير محمد حسين الحسنيّ الحسيني الأصفهاني ذهب ـ على ما نقله عنه صاحب الروضات ـ إلى أنّ الرجل تشيّع في أواخر حياته ، بدليل ما ورد في «ربيع الابرار» من نصوص تُشْعِر بهذا المعنى ، فقال : «فإنّه لا ريب في كونه على مذهب أهل السنّة والجماعة في مبادىء أمره ، كما يفصح عنه تصفّح الكشاف ، فإنّه سلك فيه مسلك الاعتساف في مسألة الإمامة وما يتعلّق بها ، ولذلك أجمعت الإمامية على كونه من العامة ولم يُجَوّز أحد من العلماء استبصاره ورجوعه ، ولكنّه لمّا اتّفق لي مطالعة كتابه المسمى بـ «ربيع الابرار» وعثرت على كلام له صريح في

(٣٣) أُنظر مرآة الجنان لليافعي ٣ : ٢٧٠ .
(٣٤) ميزان الاعتدال ٤ : ٧٨ .
(٣٥) البداية والنهاية ١٢ : ٢١٩ .
(٢٦) شذرات الذهب ٤ : ١٢١ .

التشيع لا يقبل التأويل ، ثمّ تصفّحت وتفحّصت فيه عمّا يؤكد ذلك فظفرت على غيره من الشواهد ممّا لا يجتمع مع قواعد العامة وتأويلاتهم من نحو ذِكْره لفضائل السيد الحميري وأشعاره الرائقة في فضائل أهل البيت عليهم السلام»(٣٧) ثمّ ذكر عدّة موارد من الكتاب تأكيداً لما يذهب إليه .

وعلّق السيد الخوانساري على الأبيات التي قالها في مدح آل النبي صلّى الله عليه وآله قائلاً : «وفيه أيضاً من الدلالة على تشيّع الرجل ـ ولو في آخر عمره ـ ما لا يخفى»(٣٨) .

ولا نريد في هذه العجالة الخوض في لجج هذه المسألة ، بقدر ما قصدنا الإشارة إليها .

وفاته :

تُوفي الزمخشري بعد رجوعه من مكة المكرّمة ليلة عرفة من سنة ٥٣٨ هـ في جُرْجَانِيَّة خوارزم ، وهي بضم الجيم الأُولى وفتح الثانية وسكون الراء بينهما وبعد الألف نون مكسورة وبعدها ياء مثناة من تحتها مفتوحة مشددة ثم هاء ساكنة ، قال ياقوت : يقال لها بلغتهم كركانج ، وقد عُرّبت فقيل لها الجرجانية وهي على شاطىء جيجون .

وأوصى أن تكتب على لوح قبره هذه الأبيات :

يا من يرى مدّ البعوض جناحها ... في ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى عروق نياطها في نحرها ... والمُخ في تلك العظام النحّل
اغفرْ لعبدٍ تاب من فرطاته ... ما كان منه في الزمان الأول

(٣٧) روضات الجنّات ٨ : ١٢٠ .

(٣٨) روضات الجنّات ٨ : ١٢٧ .

نحن والرسالة :

من الطريف أنّ كلّ من ترجم للزمخشري وذكر مصنفاته ، لم يذكر رسالتنا هذه ولم يتعرض لها ، ممّا يضفي على هذه الرسالة أهمية خاصة لا تخفى على المهتمين بالشأن التراثي ، إلاّ أنّ هذه الحقيقة تفتح الأبواب مشرعة أمام من يتساءل عن صحة نسبة الرسالة للزمخشري ، وجوابنا هو ما يلي :

١ ـ إنّ أُسلوب كتابة الرسالة من المتانة اللغوية والبلاغية بمكان ، يكاد يقطع كلّ من يطالعها إلى أنها ترتقي بمستواها إلى أُسلوب الزمخشري الرفيع .

٢ ـ توجد هناك مجموعة من التعابير المجازيّة المستخدمة في الرسالة وجدتها بألفاظها ومعانيها في كتاب «أساس البلاغة» للزمخشري وقد أشرت في الهامش لذلك ، وفي هذا من الدلالة ما لا يستهان به .

٣ ـ قول السائل في مقدّمة الرسالة التي بعثها للمؤلف : «ساعات سيّدنا الإمام الزاهد الحبر العلاّمة جار الله شيخ العرب والعجم» وقوله أيضاً : (بعد أنّ جشّم خاطره في «الكشاف عن حقائق التأويل») يدلّ دلالة واضحة على أنّ مؤلف الرسالة هو الزمخشري صاحب الكشّاف ، ويدلّ أيضاً على أنّ تأليفها كان بعد تأليف كتاب الكشّاف ، ولعلّ هذا يفسّر عدم ذِكْر المصنّف لهذه الرسالة في تفسير سورة الكوثر في كتابه الكشّاف .

منهج التحقيق :

اعتمدت في تحقيق الرسالة على نسخة واحدة قام باستنساخها سماحة العلاّمة المحقق السيد عبد العزيز الطباطبائي عن النسخة

المحفوظة في المكتبة الظاهرية بدمشق في تاريخ١٧ ربيع الأول١٣٨٣ هـ ، حيث تفضّل عليّ بها مشكوراً ، والنسخة المذكورة كان قد نقلها محمد سعيد بن عمر كرامة عن نسخة موجودة في المكتبة العارفية في المدينة المنورة ، صدّرها بقوله : «رسالة في إعجاز سورة الكوثر التي هي أقصر السور للعلاّمة الطائر الصيت جار الله الزمخشري» وتوجد في النسخة حواشي كتبها الناسخ ، نقلت منها في أربعة موارد فقط رامزاً لها بـ «هـ م» أي هامش المخطوط ، حفظاً للأمانة العلميّة .

وحاولت جهد الإمكان أن أقدّم نصّاً مضبوطاً للقارىء ، أقرب ما يكون لما تركه المؤلف على أنّه لم تقع في يدي أكثر من نسخة واحدة ، وفي ذلك من المصاعب ما لا يخفى على أصحاب الخبرة في هذا الميدان ، فسعيتُ لتحقيق هذا الغرض بتخريج أغلب الألفاظ الصعبة من المعاجم اللغوية ، ولا يفوتني أن أشكر أخي الأُستاذ أسد مولوي الذي استفدت من ملاحظاته في هذا المضمار ، وترجمت لأغلب الأعلام الواردين في الرسالة ، وشرحت الأمثال التي أقحمها المؤلف في سياق كلامه مع ذكر مصادرها ، وتعرّضت لشرح المصطلحات البلاغية والكلامية كـ «الالتفات» و«الصرفة» متوخّياً بذلك تبسيط النصّ ، وخرّجت النصوص الواردة من آيات وأحاديث وآثار ، ذيّلت كلّ ذلك في هامش الكتاب الذي يعتبر ساحة عمل المحقّق ، ثم رتبت بعد هذا وذاك مجموعة فهارس فنية تعين المطالع على استخراج ما يحتاجه من كنوز الرسالة .

•• آملاً بعملي هذا أن أكون قد قدّمت جهداً متواضعاً يصبّ في خدمة المكتبة الإسلامية ، ورافداً لمسيرتها المباركة ، بما هو نافع من تراثنا المعطاء ، والحمد لله ربّ العالمين .

حامد الخفّاف

٢٠ ربيع الثاني ١٤٠٩ هـ

هذه الرسالة المعروضة إلى العلّامة
الزمخشري من بعض معاصريه التي كانت
رسالته الآتية جواباً عنها بياناً لما في ضمنها

بسم الله الرحمن الرحيم

ساعات سيّدنا الإمام الزاهد الحبر العلّامة جار الله شيخ العرب والعجم ، أدام الله إمتاع المسلمين ببقائه ، وإن كانت مقصورة على الاستعداد للمعاد ، مستغرقة في اتعاب خاطره الوقّاد في فنون الاجتهاد ، لا يفتر طرفة عَيْن عن تصنيف ينفث فيه سحره ، ويلفظ للغوّاصين فيه درّه ، بعد أن جشّم خاطره في «الكشّاف عن حقائق التأويل» وأجال رؤيته في البحث عن وجوه التأويل ، مدئباً في الفكر مطاياه ، متغلغلاً في علم البيان إلى زواياه وخباياه ، حتى ارتفع كتاباً ساطعاً بيانه ، جليّاً برهانه ، مشحوناً بفوائد لا يدركها الإحصاء ، ومحاسن لا يقصرها الاستقصاء ، لكنّه مع هذا يُتَوَقَّع من دينه المتين وفضله المبين أنْ يتصدق على معشر الداعين لأيامه ، الشاكرين لانعامه ، بالجواب عن اعتراضات تنزاح بسببه شبه المرتابين ، ليتوصّلوا بنتائج خاطره ، وبركات أنفاسه ، إلى ثلج الصدور وبرد اليقين ، والله تعالى وليّ توفيقه في ما يكسبه جزيل المثوبة في العقبى ، وحسن الاحدوثة في الدنيا إن شاء الله .

٠٠ فمنها : سأل سائلٌ فقال : ذكرتم أنّ لغة العرب لها من الفضيلة ما ليس لسائر اللغات، فقلتم قولاً غفلاً ساذجاً من غير أن تشيروا إلى بيان وجه التفضيل ، وتبيّنوا الخواصّ التي لأجلها أحدث وصف الفضيلة والشرف ،

وتعدّوها فصلاً فصلاً ، وتشيروا إليها شيئاً فشيئاً ، وما أنكرتم على من قال لكم : إنّ لغة العرب وغيرها من اللغات المختلفة كالسريانيّة والعبرانيّة والهنديّة والفارسيّة كلّها على السواء ، لا فضيلة لبعضها على البعض ، وإنّما هي مواضعات ورسوم واصطلاحات وضعت لأجيال النّاس للإفهام والإعلام ، لتكون دلالات على المقاصد والأغراض .

وذكرتم أنّ في لغة العرب دقائق وأسراراً لا تنال إلّا بجهد التأمل وفرط التيقّظ ، فلا يخفى أنّ هذه الأسرار والدقائق لا يمكن دعواها في الأسماء المفردة والأفعال المفردة والحروف المفردة ، وإنّما يمكن دعوى هذه الأسرار على تقدير ارتباط الكَلِم ، وجعل بعضها يتّصل بسبب بعض وينتظم ، ومثل هذا موجود في كلّ لسان إذا ربطت بعض الكلم ببعض ، وراعيت في ربطها الأليق فالأليق ، حصل لك المقرّر والمقصود ، وقارن في هذه القضية لغة العرب وغيرها من اللغات على السواء .

ومنها : أنّه لا يخفى أنّ القرآن سيّد معجزات رسولنا عليه الصّلاة والسّلام ، والعِلْم بكونه معجزاً عِلْم ضروريّ ، ولكنّ الشأن في بيان إعجازه ، فمن قائل يقول وهو النظّام[١] ومن تبعه : إنّ الآية والأعجزية في القرآن اختصاصه بالإخبار عن الغيوب بما كان ويكون ، وبمنع الله العرب

(١) هو إبراهيم بن سيار بن هانىء البصري ، أبو إسحاق النظّام ، من أئمّة المعتزلة ، تبحّر في علوم الفلسفة ، واطّلع على أكثر ما كتبه رجالها من طبيعيّين وإلهيّين ، وانفرد بآراء خاصّة ذكرها الشهرستاني في الملل والنحل ، تابعته فيها فرقة من المعتزلة ، سميت «النظاميّة» نسبة إليه ، أما شهرته بالنظّام فبعض يقول : إنّها من إجادته نظم الكلام ، وبعض يقول : إنّه كان ينظم الخرز في سوق البصرة ، توفي سنة ٢٣١ هـ .
انظر «أمالي المرتضى ١ : ١٣٢ ، تأريخ بغداد ٦ : ٩٧ ، الملل والنحل ١ : ٥٦ ، سفينة البحار ٢ : ٥٩٧ ، الأعلام ١ : ٤٣» .

أن يأتوا بمثله . قال : وأمّا التأليف والنظم فقد كان يجوز أن يقدر عليه العباد ، لولا أنّ الله تعالى منعهم وأعجزهم بمنع وعجز أحدثهما فيهم .

ومن قائل يقول : وجه الإعجاز في القرآن أنّه أُسلوب من أساليب الكلام ، وطريقة ما عهدها العرب ولا عرفوها ، ولم تكن مقدورة لهم .

ومن قائل يقوله : وجه الإعجاز فيه عِلْمنا بعجز العرب العاربة عن أنْ يأتوا بمثله ، وتركهم المعارضة مع تكرار التحدّي عليهم وطول التقريع لهم ، فإذا عجز العرب عن ذلك فنحن أولى بالعَجْز .

ومن قائل يقول : وجه الإعجاز فيه هو ما اختصّ به من الفصاحة والبلاغة التي بهرهم عند سماعها ، وطأطأوا رؤوسهم عند طروقها ، وعليه الأكثرون .

فإن عسى اعترض المعترض وقال :

ماذا أعجزهم ؟ وماذا أبهرهم ؟ ألفاظ القرآن أم معانيه ؟! إنْ قال : أردت الألفاظ مع شيء منهما لا يجب فضل البته على تقدير الانفراد ، لأن الألفاظ [لا] تُراد لنفسها ، وإنّما تُراد لتجعل دلالات على المعاني ، ولأنّ الألفاظ التي نطق بها القرآن ليست إلّا أسماء وأفعالاً وحروفاً مرتبطاً بعضها ببعض ، ويستعملونها في مخاطباتهم ، وكذلك الجُمَل المنظومة .

وإنْ قال : أعجزهم المعاني . يقال له : أليس انّهم كانوا أرباب العقول وأهل الحِجى ، يدركون غوامض المعاني بأفهامهم ، ولهم المعاني العجيبة ، والتمثيلات البديعة ، والتشبيهات النادرة .

وإنْ قال : بهرهم النَظْم العجيب . يقال له : أليس معنى النَظْم هو تعليق الكَلِم بعضها ببعض ، وهي الأسماء والأفعال والحروف ، ومعرفة

طرق تعلّقها ، كتعلّق الإسم بالإسم ، بأنْ يكون خبراً عنه أو صفةً له أو عطفَ بيان منه ، أو عطفاً بحرف عليه ، إلى ما شاكله من سعة وجوهه ، وكتعلّق الاسم بالفعل ، بأنْ يكون فاعلاً له ، أو مفعولاً ، إلى سائر فروعه واتباعه ، وكتعلق الحرف بهما كما هو مذكور في كتب النحو ، وهم كانوا يعرفون جميع ذلك ، وكانوا يستعملونه في أشعارهم وخطبهم ومقاماتهم ، ولو لم يعرفوا وجوه التعلّق في الكلم ، ووجوه التمثيلات والتشبيهات ، لَمَا تأتّى لهم الشعر الذي هو نفث السحر .

فحين تأتّى لهم ذلك ، ومع هذا عجزوا عن المعارضة ، دلّ على أنّ الله تعالى أحدث فيهم عجزاً ومنعاً .

قال : ولأنّ الإعجاز في القرآن لو كان لمكان اختصاصه بالفصاحة والبلاغة لنزل القرآن من أوّله إلى آخره في أعلى مراتب الفصاحة ، ولكان كلّه على نسق قوله تعالى : ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَائَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ المَاء . . .﴾[٢] . وليس كلّه نَزَل على هذا النسق ، بل فيه ما هو في أعلى مراتب الفصاحة كما ذكرنا ، وما هو دونه كقوله تعالى : ﴿تَبَّتْ يَدَا أبي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ و ﴿اذَا جَاءَ نَصْرُ آللهِ وَالْفَتْحُ﴾ و﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ .

ولأنّ الحال لا تخلو إمّا أنْ يقال لا رتبة في الفصاحة أعلى من رتبة القرآن ، كما ذهب إليه بعض أهل العدل ، فقالوا : لو كان في المقدور رتبة أعلى منها لأنزل الله سبحانه وتعالى عليها القرآن ، إذْ لا يحسن أن يقتصر المكلّف على أدنى البيانين مع قدرته على أعلاهما ، ولأنّ في أعلى البيانين وجه الدلالة على صدق الرسول أقوى .

---

(٢) سورة هود ١١ : ٤٤ .

وإمّا أنْ يقال : بأنّ القرآن وإنْ كان فصيحاً بليغاً ففي مقدور الله تعالى ما هو أعلى منه مرتبة في الفصاحة . فيقول المعترض فهلاّ أنزله من أوّله إلى آخره على أعلى مراتب الفصاحة التي ليس وراءها منتهى .

قال : فهذا دليل على أنّ العمدة في الإعجاز ليس اختصاصه بالفصاحة والبلاغة لكن عجز ومنع أحدثهما الله تعالى فلم يشتغلوا بالمعارضة .

ومنها : انّ الله تعالى أنزل القرآن وأودعَ فيه من العلوم ما عَلِمَ أنّ حاجة الخلق تمسّ إليه إلى قيام الساعة ، لا جرم بَذل العلماء في كلّ نوعٍ منه مجهودهم ، واستفرغوا فيه جهدهم ووسعهم ، فأهل الكلام ـ خصوصاً أهل العدل والتوحيد ـ استظهروا في ما ذهبوا إليه من العدل والتوحيد بالآيات الواردة فيه على صحّة ما اعتقدوه ، وعلى [إبطال] ما ذهب إليه أهل الأهواء والبدع وفساد ما انتحلوا .

وأهل الفقه غاصوا في بحور النصوص فاستنبطوا منها المعاني وفرّعوا الأحكام عليها .

وأهل التأويل خاضوا في محكمها ومتشابهها، ومجملها ومفصّلها ، وناسخها ومنسوخها .

وأهل النحو بَسَطوا الكلام في تصانيفهم بسطاً فكلٌّ أنفق على قدر ما رزق ، ثمّ لم يبلغنا عن واحد منهم أنّه شمّر ذيله وادَّرَعَ ليله(٣) في بيان وجْه الإعجاز على التفصيل سورة فسورة وآية فآية ، فابتدأ مثلاً بفاتحة

---

(٣) يقال : «شَمَّرَ ذيلاً وادَّرعَ ليلاً» أي استعمل الحزم واتخذ الليل جملاً . «الصحاح ـ درع ـ ٣ : ١٢٠٧» .

الكتاب فكشف عن وجه الإعجاز في ثلاث آيات منها ، ثمّ ترقّى إلى ثلاث آيات أُخر فكشف عنها أيضاً وجه الإعجاز إلى أن ينتهي إلى آخرها ، مع شدّة الحاجة إلى ذلك في كلّ زمان ، إذْ حجّة الله تعالى قائمة ، ومعجزته على وجه الدهر باقية .

وكذلك لم ينقل أنّهم صَنَّفوا في هذا الباب على هذا الوجه تصنيفاً مع تهالكهم وولوعهم ، والعجب أنّهم صَنَّفوا في حُلِيّ الصحابة والتابعين وهيئاتهم ، فذكروا الطوال منهم والقصار ، ومن ابتلي منهم بالعَمَى والعَوَر والعرج والعجمة والزمانة والشلل ، مع أنّ بالخلق مندوحة وغنية عن ذلك .

وهذا أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ[٤] صنّف كتباً في الجدّ والهزل تكاد لا تُعدّ ولا تحصى ، فصنّفَ كتاباً سمّاه «القَعِرَة والشَفِرَة»[٥] وآخر سمّاه «مفاخرة الشتاء والصيف» إلى أشباه هذا كثيرة ، صعد فيها

(٤) عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء ، الليثي ، أبو عثمان ، الشهير بالجاحظ : كبير أئمة الأدب ، ورئيس الفرقة الجاحظية من المعتزلة ، ولد سنة ١٦٣ هـ ، وكان مشوّه الخلقة ، وفلج في آخر عمره ، له تصانيف كثيرة ذكرت في مظان ترجمته ، قتلته مجلدات من الكتب وقعت عليه ، مات في البصرة سنة ٢٥٥ هـ .
أُنظر «تأريخ بغداد ١٢ : ٢١٢ ، وفيات الأعيان ٣ : ٥٠٦/٤٧٠ ، لسان الميزان ٤ : ١٠٤٢/٣٥٥ ، ميزان الاعتدال ٣ : ٦٣٣٣/٣٤٧ ، شذرات الذهب ٢ : ١٢١ ، الأعلام ٥ : ٧٤» .

(٥) إمرأة قَعِرة وقَعِيرة : بعيدة الشهوة ؛ عن اللحياني ، وقيل : هي التي تجد الغُلْمة في قعر فرجها ، وقيل : هي التي تريد المبالغة ، وقيل : نعت سوء في الجماع «لسان العرب ـ قعر ـ ٥ : ١٠٩» .
والشَفِرةَ والشفيرة من النساء : التي تجد شهوتها في شفرها فيجيء ماؤها سريعاً . وقيل : هي التي تقنع من النكاح بأيسره ، وهي نقيض القعيرة «لسان العرب ـ شفر ـ ٤ : ٤١٩» .

وصوب ، وشرّق وغرّب ، وحشاها بما لا حاجة للخلق فيه إلى معرفته ، ثمّ لمّا آل الأمر إلى بيان وجه الإعجاز على التفصيل آية فآية وسورة فسورة ، ضمَّ شفتيه ضمّاً ، وختم على لسانه ختماً ، فلم ينبس بكلمة أو كلمتين ، ورضي من الغنيمة بالإياب(٦) .

وإذْ صَحَّ أنّ السلف رحمهم الله مع تقدّم الخواص منهم في علم البيان ، والتبحّر في الإحاطة بحقائق المعاني ، وصِدْق رغبتهم في إحراز الثواب ، وحاجتهم إلى أنْ يكون لهم لسان صِدْق في الآخرين ممرّ الأحقاب ، لم يشتغلوا ببيان الإعجاز على التفصيل في كلّ آية منه ، بل أعرضوا عن ذلك بواحدة مع أنّهم أشاروا إلى ذلك على سبيل الإجمال ، والحال لا تخلو إمّا أنْ يقال خَفِيَ عليهم وجه الإعجاز على التفصيل على هذا الوجه ، فلم يَقِفُوا عليه ولم يهتدوا إليه أوْ لا . فإن قيل : خَفِيَ عليهم ولم يقفوا عليه ولم يجدوا طريقاً إليه . فيقال : إذن مؤنة البحث والتنقير عنهم ساقطة ، ووجوه العذر لهم في الإعراض عن ذلك ظاهرة .

ولئن لم يَخفَ عليهم فَلِمَ لَمْ يصرفوا معظم همّهم إلى هذا الأمر العظيم ، والخَطْب الجسيم ، فيصنّفوا ويشرحوا كما صنّفوا في فروع الأحكام من الحلال والحرام ، وصنّفوا في فروع الكلام ، فلم يبقَ إلاّ أن يقال : أحدث في الكلّ منعاً منعهم عن ذلك لمصلحة رآها فيه .

فهذه عدّة أسئلة فليتفضّل أدام الله علوّه بالإجابه عنها ، والله يعصمه

---

(٦) مثل سائر ، أول من قاله امرؤ القيس بن حجر في بيت له ، وهو :

وقد طَوَّفْتُ في الآفاق حتى ... رضيت من الغنيمةِ بالإيابِ

يضرب عند القناعة بالسلامة ، «مجمع الأمثال ١ : ٢٩٥/١٥٦٠» .

من الخطأ والزلل ، ويوفّقه لإصابة القول والعمل ، إنّه على ما يشاء قدير

تمّت .

بســـم الله الرحمـــن الرحيـــم

نمّقت يدُ الأخ في الله الإمام الصمصام زادهُ الله في الدينِ طمأنينةً وثَلَجـاً[٧] ، وفي مواقف الجَـدَلِ فوزةً وفَلَجـاً[٨] صحيفة قـد احتبى في تجويدها وتربّع ، وتبدّع في إنشائها وتبرّع ، ولم يألها تمليحاً وترشيقاً ، وما ادّخر عنها توشيحاً وتطويقاً ، وخرّج سؤالات لوصلكَ بها ابن الأهتم لهُتمت أسنانه[٩] ، أو ابن المُقَفَّع[١٠] لقُفعت بَنانه ، أو ابن القِريَّة[١١] لبقى

---

(٧) يقال : ثلجت نفسي بالأمر تَثْلَج ثَلَجاً ، وثلَجت تَثْلُج ثُلوجاً إذا اطمأنّت إليه وسكنتْ ، وثبت فيها ووثقت به «النهاية ـ ثلج ـ ١ : ٢١٩» .

(٨) الفالج : الغالب أو المنتصر ، أُنظر «النهاية ـ فلج ـ ٣ : ٤٦٨» .

(٩) صكّه ضربه شديداً ، ومنه قوله تعالى : ﴿فصكّت وجهها﴾ ، وابن الأهتم هو عمرو بن سنان الأهتم ، وإنّما لقب أبوه سنان بالأهتم لأنّه هُتمت ثنيّته يوم الكلاب أي كسرت ، يقال : هتمت الثنيه إذا كسرتها ، وهتمت هي إذا انكسرت .
وعمرو هذا من آكابر سادات بني تميم وشعرائهم وخطبائهم في الجاهلية والإسلام وهو بليغ القول ، فصيح العبارة . قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : «إنّ من البيان لسحراً» لمّا سمع منه ما قاله في حقّ الزبرقان بن بدر . أُنظر شرح رسالة ابن زيدون عند الكلام على قوله : (وعمرو بن الأهتم إنّما سحر ببيانك) . «هـ.م» .

(١٠) عبدالله بن المقفع : من أئمّة الكتّاب ، وأول من عنى في الإسلام بترجمة كتب المنطق ، ولد في العراق مجوسياً ، وأسلم على يد عيسى بن علي (عمّ السفاح) ، وولي كتابة الديوان للمنصور العباسي ، وأنشأ رسائل غاية في الإبداع ، واتهم بالزندقة فقتله في البصرة أميرها سفيان بن معاوية المهلبي سنة ١٤٢ هـ ، وأمّا المقفع أبوه فاسمه المبارك ، ولُقّب بالمقفع لأنّ الحجّاج ضربه فتقفّعت يده أي تشنّجت .
أُنظر «أمالي المرتضى ١ : ٩٤ ، لسان الميزان ٣ : ٣٦٦ ، الأعلام للزركلي ٤ : ١٤٠» .

(١١) هو أيوب بن زيد بن قيس بن زرارة الهلالي : أحد بلغاء الدهر ، خـطيب يضرب به =

خابطاً في مرية[١٢] ، وإن أفرغ صماخ قِرّيته[١٣] ، وهكذا جَحاجِحة العرب ، لا تتخطاهم في رَشْقٍ أصابه ، ولا تُسقط لنازعهم في قوسٍ نَشّابه[١٤] .

وسألني الإجابة عن تلك السؤالات بنظم رسالة من أبلغ الرسالات ، تَقَع من السائل موقع الفُرات[١٥] من الحَرّان[١٦] ، وتَنْزِل منه منزلة السداد من الحَيْران ، وكرّرَ الطلبَ وردّد ، وألحّ فيه وشدّد ، وضيّق عَليَّ الأمر وعوّصه ، وقال : أنت الذي عيّنه الله وشخّصه ، حتّى لم أجد بدّاً من

= المثل ، يقال : «أبلغ من ابن القِرِّيّة» والقرية جدّته ، قتله الحجاج سنة ٨٤ بعد أن أسره في وقعة دير الجماجم بعد أن قال له : والله لأزيرنك جهنم ! قال : فأرحني فأني أجد حرّها ! فأمر فضربت عنقه . ولمّا رآه قتيلاً قال : لو تركناه حتى نسمع كلامه . وأخباره كثيرة .

أنظر «وفيات الأعيان ١ : ٢٥٠/١٠٦ ، الكامل في التاريخ ٤ : ٤٩٨ ، الأعلام ٢ : ٣٧» .

(١٢) المراء : الجدال ، والتماري والمماراة : المجادلة على مذهب الشكّ والريبة «النهاية ـ مرا ـ ٤ : ٣٣٢» .

(١٣) أفرغ : صب ، وصماخ ككتاب : الاذن ، وكغراب : الماء ، وقريَة : الحوصله . والمراد بها ما اشتهر به من البلاغة حتى صارت له كالعلم ، كما صار اسم حاتم للكرم ، والتفسير عليها دون القرية واحدة القرى ، ودون القربة سقاء الماء واللبن ، أي وإن صبّ اذن حافظته ، أو استنزف ماء قريحته ، كناية عن إجهاد نفسه في البيان ، وخنق فرسه في الميدان ، فهذه الأسئلة إن قرعت له سمعاً يضيق بها ذرعاً ، ويبقى خابطاً في الشكّ والجدل ، لا حول له بها ولا حيل . «هـ م» .

(١٤) لا تسقط أي لا تخطىء ، ونزع القوس مدّها ، ونشّابه أي نبله ، أي هذه السؤالات كما يقصر عنها المذكورون من أئمّة الأدب فإنّها تصيب بلاغة سادات العرب ، ولا تخطىء نبل متقوّسهم في ارب . «هـ م» .

(١٥) الفُراتُ : أشدّ الماء عذوبة «لسان العرب ـ فرت ـ ٢ : ٦٥» .

(١٦) الحَرّان : العطشان «مجمع البحرين ـ حرر ـ ٣ : ٢٦٤» .

إجابته إلى ما أراد ، وإسعافه بما ابدأ فيه وأعاد .

وكان أمْثَل الأمرين أنْ أُلجم نفسي وأحجرها ، وأن أُلقمها حجرها ، ولا أفغر بمنطق فماً ، ولا أبلّ بجوابٍ قلماً ، وليس بينَ فَكَّيَّ لسانٌ دافع ، وليس في مَاضغيَّ ضرسٌ قاطع ، ولاً بينَ جَنْبَيَّ نفس حركة نشيطة ، ولكنْ حردة[١٧] مُستشيطة ، لِمَا أنا مفجوع به من مفارقة كلّ أخٍ كان يسمع مِنّي الكلمة الفذّة فيضعها على رأسه ، ويَعَضّ عليها بأضراسه ، ويتقبّلها بروحه ، ويلصقها بكبده ، ويجعلها طوقاً في أعلى مُقلَّده ، ويُسْكنها صميمَ فؤاده ، ويخطّها على بياض ناضره بسواده ، لولا خِيفة أنْ تسوّل له نفسه أنّني أقللتُ الاكتراث بمراسلته ، وأخللتُ الاحتفال بمسألته ، وأنْ يقول بعض السمعة ـ ممّن يَحسِب لساني لسان الشمعة ـ : أقسم بالله قَسَماً ما وجدَ في دَيسم[١٨] دَسَماً ، فمن ثَمّ ضَرَبَ عنه صفحاً ، وطوى عنه كشحاً ، ولم يولِهِ لمحة طرف ، ولم ينطق في شأنه بحرف .

أمّا العرب فقد صَحَّ أنّ لُغتها أصحّ اللغات ، وأنّ بلاغتها أتمّ البلاغات ، وكلّ من جمحَ في عنان المناكرة ، وركبَ رأسه في تيه المكابرة ، ولم يرخِ للتسليم والإذعان مشافره[١٩] فما أفسدَ حواسّه ومشاعره ! وهو مِمَّن أذِنَ بحرب منه لعقله الذي هو إمامه في المراشد ،

---

(١٧) يقال : حَرَدَ الرجل حُرُوداً إذا تحوّل عن قومه وانفرد . أُنظر «النهاية ـ حرد ـ ١ : ٣٦٢» .

(١٨) الديسم : بالفتح ولد الدبّ ، قال الجوهري : قلت لأبي الغوث : يقال إنّه ولد الذئب من الكلبة ، فقال : ما هو إلاّ ولد الدبّ ، وقال في المحكم : إنّه ولد الثعلب . وقال الجاحظ : إنّه ولد الذئب من الكلبة ، وهو أغبر اللون وغبرته ممتزجه بسواد ، وحكمه تحريم الأكل على كلّ تقدير . «الحيوان ١ :٣٤٣» .

(١٩) الشُفْر : بالضم ، وقد يفتح ، حرف جفن العين الذي ينبت عليه الشعر «النهاية ـ شفر ـ ٢ : ٤٨٤» .

ولتمييزه الذي هو هاديه إلى المقاصد .

إعلم يا من فُطِرَ على صلابة النبع ، وأُمِدَّ بسلامة الطبع ، ووُفِّقَ للمشي في جادّة العدل والإنصاف ، وعُصِمَ من الوقوع في عاثور الجور والاعتساف ، فإنّ واضع هذا اللسان الأفصح العربي من بين وضّاع الكلام ، إنْ لم يكن واضعه رافع السماء وواضع الأرض للأنام ، فقد أخذ حروف المُعْجَمِ التي هي كالمادّة والعنصر ، وبمنزلة الإكسير والجوهر ، فعجَمَهَا مبسوطاتٍ فرائد ، ودَافَها(٢٠) الواحد فالواحد ، وتَقَلْقَلَتْ في يده قبلَ التأليف ، تقلقل الدنانير في أيدي الصياريف(٢١) ، حين تراهم ينفون زيفها وبهرجها(٢٢) ، ويصطفون إبريزها وزبرجها ، فتخيّر من بينها أطوعها مَخارج ، وتنخّل منها أوطأها مدارج ، وميّز أسلسها على الأسَلَات(٢٣) ، وأعذبها على العَذَبات(٢٤) ، وأحلاها في الذوق وأسمحها ، وأبهاها عند

---

(٢٠) داف الشيء دَوْفاً وأدافه : خلطه «لسان العرب ـ دوف ـ ٩ : ١٠٨» .

(٢١) لم يرد جمع الصيرفيّ أي النقّاد على هذه الصيغة إلاّ في الشعر قال ابن منظور : «الجمع صيارف وصيارفة ، والهاء للنسبة ، وقد جاء في الشعر الصيارف ، فأمّا قول الفرزدق :

تنفي يداها الحصى في كلّ هاجرةٍ ... نفي الدراهيم تَنْقادُ الصياريفِ

فعلى الضرورة لما احتاج إلى تمام الوزن أشبع الحركة ضرورة حتى صارت حرفاً» .
وقال الفيروز آبادي : «وقد جاء في الشعر صياريف» ولعلّ ما أورده الزمخشري تبعاً لاقتضاء سجع العبارة ظاهراً ، أُنظر «لسان العرب ٩ : ١٩٠ ، القاموس المحيط ٣ : ١٦٢ ، مادة صرف» .

(٢٢) البَهْرَجُ : الباطلُ ، واللّفظة معربة . وقيل : كلمة هندية أصلها نبهله ، وهو الرديء ، فنقلت إلى الفارسية ، فقيل نبهره ، ثمّ عُرِّبت فقيل : بَهْرَجَ . «النهاية ـ بهرج ـ ١ : ١٦٦» .

(٢٣) الأسلات : جمع أسَلة ، وهي طرف اللسان «النهاية ـ أسل ـ ١ : ٤٩» .

(٢٤) عَذَبَة اللسان : طرفه ، والجمع «عَذَبات» كقصبة وقصبات . «مجمع البحرين ـ عذب ـ ٢ : ١١٧» .

السَبْر وأملحها ، وأبعدها من مجّ الأسماع ، وأقربها امتزاجاً بالطباع ، وأوقعها لفحول الأمة الناغمة بأجراسها ، وأحسنها طباقاً لطُرِق أنفاسها .

ولما انتقل من انتقاء وسائطها ، بعد انتقاد بسائطها ، إلى أنْ يؤلّف ويركّب ، ويرصَف ويرتّب ، عمد في عمل التراكيب إلى أشرف الأنماط والأساليب ، فألّف أنماطاً تستهشّ[٢٥] أنفسَ الناطقين ، وكلمات تَتَحَلّب[٢٦] لها لُهى[٢٧] الذائقين ، وتجول في فجوات الأفواه ، فتتمطّق[٢٨] بها مستلذات ، ويطرق بها الآذان فتهوي بها مغذّات[٢٩] ، وما طنّت على مسامع أحد من أجيال الأعاجم ، وأخياف الطماطم[٣٠] إلّا أصغى إليها متوجّساً ، وأصاخ لها مستأنساً ، وأناس[٣١] فوديه[٣٢] مستعجباً ، وأمالَ عطفيه مستغرباً ، وقال : ما هذا اللسان المستلذّ على الصِماخ[٣٣] إيقاعه ، المُحْلَولى في مخارق الآذان استماعه ، المفارق

(٢٥) يقال : اسْتَهشّني أمر كذا فهششت له أي استخفّني فخففت له «لسان العرب ـ هشش ـ ٦ : ٣٦٤»

(٢٦) تحَلّب العرق وانحلب أي سال «الصحاح ـ حلب ـ ١ : ١١٥» .

(٢٧) جمع لهاة ، وهي اللحمات في سقف أقصى الفم «النهاية ـ لها ـ ٤ : ٢٨٤» .

(٢٨) يقال : ذاقه فتمطّق له إذا ضمّ شفتيه إليه وألصق لسانه بنطعٍ فيه مع صوت «أساس البلاغة : ٤٣٢» .

(٢٩) مغذات : مسرعات .

(٣٠) أخياف أي مختلفون ، والطماطم جمع طِمْطِمْ ، وهو الذي في لسانه عجمة لا يفصح . أُنظر «أساس البلاغة ـ خيف ـ ١٢٤ ، الصحاح ـ طمم ـ ٥ : ١٩٧٦» .

(٣١) ناسَ الشيء ينوس نَوْساً ونَوَساناً : تحرّك وتذبذب متدلياً . «لسان العرب ـ نوس ـ ٦ : ٢٤٥» .

(٣٢) الفَوْدُ : معظم شعر الرأس مما يلي الأُذن ، وفوداً الرأس جانباه «لسان العرب ـ فود ـ ٣ : ٣٤٠» .

(٣٣) صِماخ الأُذن بالكسر : الخرق الذي يفضي إلى الرأس ، وهو السميع ، وقيل هو الأُذن نفسها «مجمع البحرين ـ صمخ ـ ٢ : ٤٣٧» .

لجميع اللغات والألسنة ، المَصُون من الحروف الملكنة .

وما ذاك إلّا لأنّ حكمَ المسموعات حكم المبصرات والممسوسات، وغيرها من سائر المحسوسات ، فكما أنَّ الأعين فارقة بين المناظر العثاث والمِلاح ، والأوجه القِباح والصِباح ، والأُنوف فاصلة بين الأعطار الفوائح ، وبين مستكرهات الروائح ، والأفواه مميّزة بين طعوم المآكل والمشارب وبين المستبشعات منها والأطائب ، والأيدي مفرزة لِمَا استلانت ممّا استخشنت ، ولِمَا استخفّت ممّا استرزنت[٣٤] ، كذلك الآذان تعزل مستقيمات الألحان من عوجها ، وتعرف مقبول الكلام من ممجوجها ، والألسن تنبسطُ إلى ما أشبه من الكلام مجاج الغمام[٣٥] ، وتنقبضُ عمّا يُشاكل منه أُجاج[٣٦] الجِمَام[٣٧] ، وهذه طريقة عاميّة يسمعها ويبصرها ويسلّمها ولا ينكرها من يُرى به شيء من طرف ، أو يرامق[٣٨] بأدنى عرف .

وأمّا الطريقة الخاصيّة التي تضمحلّ معها الشُبَهُ ، ويسكت عندها المنطيق المفوّه ، فما عنى بتدوينه العلماء ، ودأب في تضييفه العظماء ، في ألفاظ العربيّة وكَلِمَها ، من بيان خصائصها ونوادر حِكَمِها ، ممّا يتعلّق بذاوتها ، ويتّصل بصفاتها ، من العِلْمَيْن الشريفين ، والعَلَمَيْن المنيفين ،

(٣٤) رزنت الشيء أرزنه رزناً ، إذا رفعته لتنظر ما ثقله من خفّته ، وشيء رزين أي ثقيل «الصحاح ـ رزن ـ ٥ : ٢١٢٣» .

(٣٥) مُجاج الغمام : مطره . أُنظر«لسان العرب ـ مجج ـ ٢ : ٣٦٢» .

(٣٦) ماء أُجاج أي ملح ؛ وقيل : مرّ ، وقيل : شديد المرارة ؛ وقيل : الأُجاج : الشديد الحرارة . «لسان العرب ـ أجج ـ ٢ : ٢٠٧» .

(٣٧) الجُمّة : المكان الذي يجتمع فيه ماؤه ، والجمع الجِمَامُ . «الصحاح ـ جمم ـ ٥ : ١٨٩٠» .

(٣٨) رمقه بعينه رمقاً : أطال النظر إليه «مجمع البحرين ـ رمق ـ ٥ : ١٧٣» .

وهما علم الأبْنِيَة وعلم الإعراب ، المشتملان على فنون من الأبواب ، وناهيك بكتاب سيبويه[٣٩] الذي هو الكتاب ، يُطلق فلا تضلّه الألباب ، وهو الديوان الأقدم ، والميزان الأقوم ، والقانون الذي هو لكلّ محتذٍ مِثال ، والمَعْقل الذي لكلّ منضو تمثال ، وكأنّه الرأس الذي هو رئيس الأعضاء ، والراز[٤٠] الذي بيده مِطْمَر[٤١] البناء ، والإمام الذي إن نزلتْ بك شُبهة أنزلْتها به وإن وقعتْ بك مُعضلة أوردتها على بابه ، والحكمة التي قِيدَتْ بها الفلاسفه فهي حَاجِلة[٤٢] فَرَاسِفه[٤٣] .

حشا غامضاتٍ سيبويه كتابه وأحرِ بأنْ تعتاص تلك وتشتدّا
إذا وقع الأحبار فيها تحيروا فلمْ يجدوا من مرجع القهقرى بدّا

آخران :

ألا صلّى المليك صلاة صِدْقٍ على عمرو بن عثمان بن قنبر

---

(٣٩) هو عمرو بن عثمان بن قنبر ، مولى بني الحارث ، يكنّى أبا بشر وأبا الحسن ، الملقّب بـ «سيبويه» ومعناه بالفارسية : رائحة التفّاح ، ولد في إحدى قرى شيراز ، وقدم البصرة فلزم الخليل بن أحمد ففاقه ، وصنّف كتابه المعروف بـ «كتاب سيبويه» في النحو ، لم يُصنع قبله ولا بعده مثله ، توفي سنة ١٨٠ هـ ، وفي مكان وفاته والسنة التي مات بها خلاف .
أُنظر «انباه الرواة ٢ : ٣٤٦/٥١٥ ، وفيات الأعيان ٣ : ٤٦٣/٥٠٤ ، تأريخ بغداد ١٢ : ١٩٥/٦٦٥٨ ، الأعلام ٥ : ٨١» .

(٤٠) الرازُ : رأس البنائين «النهاية ـ روز ـ ٢ : ٢٧٦» .

(٤١) المِطْمَرُ : الزيج الذي يكون مع البنّائين «الصحاح ـ طمر ـ ٢ : ٧٢٦» .

(٤٢) الحَجْل والحِجْل : القيد ، يفتح ويكسر ، والحَجْل : مشي المُقيَّد ، وحَجَل يَحْجُلُ حجلاً إذا مشى في القيد «لسان العرب ـ حجل ـ ١١ : ١٤٤» .

(٤٣) الرَّسْفُ : مَشْيُ المقيّد ، ورسف في القيد : مشى مشي المقيّد ، وقيل : هو المشي في القيد رويداً ، فهو راسف «لسان العرب ـ رسف ـ ٩ : ١١٨» .

فإنَّ كتابه لَمْ يَغْنَ عنهُ   بنو قلم ولا أبناء منبر

ثمّ لا تسأل عن تناسق هذه اللّغة وتتاليها ، وعن تجاذب أطرافها وتجاليها ، وما ينادي عليه طرق اشتقاقها من حسن تلاؤمها واتفاقها ، يصادف المشتقّ الصيغ متناصره ، آخذاً بعضها بيد بعض متخاصره ، ووراء ذلك من الغرائب ما لا ينزف وإن نزف البحر ، ومن الدقائق ما لا يدق معه الكهانة والسحر ، ولا يعرف ذلك إلّا من فقه فيها وطبّ(٤٤) ، وزاولها مذ شبّ إلى أنْ دبّ ، وضربَ آباطها(٤٥) ، حتى بلغَ نياطها(٤٦) .

ولا أذكر لك ما في كلام فصحائهم ، من خطبائهم وشعرائهم ، من طرق فصاحة انتهجوها ، وخيل بلاغة ألجموها وأسرجوها ، وما وجد في مراكضهم ومضاميرهم ، من سُبّقهم ومحاضيرهم ، من الافتنان في بَابَي الكناية والمجاز ، وإصابة مواقع الإشباع والإيجاز ، والإبداع في الحذف والإضمار ، والاغراب في جملة اللطائف والأسرار ، فإنّك تعارضني بأنّ هذه الأشياء أشرك الله فيها العقلاء ، ورأينا الأعاجم قد صنّفوا فيها معاجم ، فكم في الفرس من الفرسان ، وما أهل خراسان بالخرسان ،

---

(٤٤) رجل طَبٌّ بالفتح ، أي عالم «الصحاح ـ طبب ـ ١ : ١٧١» .

(٤٥) من المجاز قولهم : نزل بإبط الرمل ، وهو مسقطه ، وبإبط الجبل ، وهو سفحه ، وضرب آباط المفازة ، وتقول : ضرب آباط الأُمور ومغابنها واستشفّ ضمائرها وبواطنها «أساس البلاغة ـ أبط ـ ١» .

(٤٦) النَّوْط : عرق غليظ علّق به القلب من الوتين ، قال أبو طالب في رسول الله صلّى الله عليه وآله :

بُنَيّ أخي ونوط القلب منّي   وأبيضُ ماؤه غَدَقٌ كثيرُ

ومن المجاز : مفازة بعيدة النياط أي الحدّ والمتعلّق ، ولا يخفى ما في المتن من تعبير مجازي ، أُنظر «أساس البلاغة ـ نوط ـ ٤٧٦» .

على أنّي لو قلت تلك(٤٧) لوجدت مقالاً ، وصادفت لفرسي مجالاً ،ولأصبت فيه وجهاً من الاحتجاج ، وردّاً للشغب واللجاج ، فإن هذه الأشياء لا تجمل ولا تجزل ولا تنبل ولا تفحل ، ولا تحسن ولا تبهى ، ولا تختال ولا تزهى ، إلّا واقعة في هذا اللسان ، دائرة بين أظهر هذا البيان .

ومثل ذلك مثل الوشي الفاخر ، والحُليّ من سريّ الجواهر ، تلبسها الحسناء فتزيدها حسناً إلى حسن ، وتعطيها زيناً إلى زين ، فإنْ نَقَلْتها إلى الشوهاء تخاذل أمرها وتضادّ ، وتناقض وترادّ ، وعصف بنصف حسنها وزينها ، ما تطلعه الشوهاء من قبحها وشينها ، وكفاك بما عددت عليك أدلة متقبّلة ، وشهوداً معدلة ، على أنّ هذا اللسان هو الفائز بالفصلِ ، الحائز للخَصْلِ(٤٨) ، وأنّ ما عداه شبه(٤٩) إلى العسجد ، وشبّ(٥٠) إلى زبرجد .

ثمّ اسمع بفضلك ، فقد آن أنْ أُفَذْلِك(٥١) ، وأختم هذا الفصل بما يحلق الحَلاَقِم(٥٢) ويَجزّ الغَلاَصم(٥٣) . وهو أنّ الله تعالى ادّخر لمحمد

---

(٤٧) الكلمة قلقة في هذه العبارة .

(٤٨) يقال : أصاب خصْلَه واحرز خَصْلَهُ : غلب على الرهان ، وقال بعضهم : الخَصْلَة الإصابة في الرمي «لسان العرب ـ خصل ـ ١١ : ٢٠٦» .

(٤٩) الشِّبْهُ والشَّبَهُ : النحاس الأصفر ، أُنظر «لسان العرب ـ شبه ـ ١٣ : ٥٥» .

(٥٠) الشبُّ : حجر معروف يُشْبه الزاج ، وقد يدبغ به الجلود «النهاية ـ شبب ـ ٢ : ٤٣٩» .

(٥١) يقال : فَذْلَكَ حسابه أنهاه وفرغ منه ، «القاموس المحيط ـ فذلك ـ ٣ : ٣١٥» .

(٥٢) الحلقوم : الحَلْق ، وقال الزجاج : الحلقوم بعد الفم وهو موضع النفس وفيه شعب تتشعَب منه ، وهو مجرى الطعام والشراب «المصباح المنير ـ حلق ـ ١٤٦» .

(٥٣) الغَلْصَمَةُ : رأس الحلقوم بشواربه وحرقدته ، وهو الموضع الناتىء في الحلق ، والجمع الغلاصم ، وقيل : الغلصمة اللحم الذي بين الرأس والعنق . وقيل : متّصل الحلقوم =

عليه صلاته وسلامه كلّ فضيلة ، وزوى عنه كلّ رذيلة ، واختصّه بكلّ توقير ، وبعّد حاله من كلّ تحقير ، واختار له كلّ ما يقع عليه الاختيار ، وخوّله ما يطول به الافتخار ، فجعل ذاته خيرة الإنْس وصفوة الأنبياء وسيّد الأموات والأحياء ، والأُمّة التي انتضاه منها خير أُمّة ، والأئمّة الذين استخلفهم بعده خير أئمّة ، وكتابه الذي أنزل عليه خير كتاب ، وأصحابه الذين قرنهم به خير أصحاب ، وزمانه الذي بعثه فيه خير زمان ، ولسانه الذي نطق به خير لسان ، ولا يحسن أن ينزل على أفضل رسول ، أفضل كتاب بلسان مفضول ، ومن لمْ يعقل عن الله تعالى : ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾[٥٤] فلا عَقَل ، ومن لم ينقل : (خير اللسان العربي) فلا نَقَل ، ثم هو لسان أهل الجَنّة ، وذلك طول من ذي الطول والمنّة .

ووجدت العرب كما يتباهون بالشدّة في مواطن الحرب ، وبالنجدة في مقَام الطعن والضرب ، وبدقّهم في النحور صدور الرماح ، وحطمهم في الرقاب متون الصفاح ، يتحلّقون فيعدّون أيّامَهم في الجاهلية والإسلام ، ووقائعهم في أشهر الحلّ والإحرام ، كذلك حالهم في التباهي بالكلام الفحل ، والتباري في المنطق الجزل ، والافتخار بالألسن اللد ، وإرسالها في أودية الهزل والجد ، وبثبات الغَدَر[٥٥] في مواقف الجدل والخصام ، وعند مصاكّ الرُكَب ومصافّ الأقدام ، ليسوا في مجالدتهم بأشدّ منهم في مجادلتهم ، ولا في مقاتلتهم بأحدّ منهم في مقاولتهم ، ولقد نطقت بذلك أشعارهم ، وشَهدتْ به آثارهم .

= بالحلق إذا ازدرد الآكل لقمته فزلّت عن الحلقوم ، وقيل : هي العجرة التي على ملتقى اللهاة والمريء ، «لسان العرب ـ غلصم ـ ١٢ : ٤٤١» .

(٥٤) سورة الشعراء ٢٦ : ١٩٥ .

(٥٥) يقال : رجل ثبت الغَدَر : أي ثابت في قتال أو كلام «الصحاح ـ غدر ـ ٢ : ٧٦٦» .

قال لبيد[٥٦] :

ومقام ضيّق فرّجتهُ ببياني ولساني وجدل
لو يقوم الفيلُ أو فيّاله زلّ عن مثل مقامي وزَحَل[٥٧]

ورأيتهم يسوّون بين الجبناء واللكن ، ولا يفصلون بين العيّ والجبن ، ويستنكفون من الخطأ واللحن .

قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : «أنا أفصح العرب بيْد أنّي من قريش ، واسترضعت في سعد بن بكر ، فأنّى يأتيني اللحن»[٥٨] .

ويتحرّون أن ينطقوا بالكَلِم الفصاح ، وأنْ يمضوا فيها على الأساليب الصِحَاح ، باحثين عن مَفْرَق الصواب ، ومصيبين منحر الإعراب ، متيقّضين لما يُستفصح ، متنبّهين على ما يُستملح ، يسمعون الكلمة العَيْناء فَيَشْرَئِبّونَ لها ، واللفظة العَوْراء فيشمئزّونَ منها .

---

(٥٦) لبيد بن ربيعة بن مالك ، أبو عقيل العامري ، أحد الشعراء الفرسان الأشراف في الجاهلية من أهل عالية نجد ، أدرك الإسلام ، ووفد على النبي ـ صلّى الله عليه وآله ـ ، ويُعدّ من الصحابة ومن المؤلفة قلوبهم ، وترك الشعر ، فلم يقل في الإسلام إلّا بيتاً واحداً ، قيل هو :

ما عاتبَ المرءَ الكريمَ كنفسِه والمرءُ يصلحه الجليسُ الصالحُ

وسكن الكوفة ، وعاش عمراً طويلاً ، وهو أحد أصحاب المعلّقات ، ومطلع معلّقته :

عفت الديار محلّها فمقامها بمنى تأبّدَ غولها فرجامها

توفي سنة ٤١ للهجرة . «الأعلام ٥ : ٢٤٠» .

(٥٧) زَحَل الشيء عن مقامه : أي زلّ عن مكانه «لسان العرب ـ زحل ـ ١١ : ٣٠٢» وفيه البيت الثاني عن لبيد .

(٥٨) ذكره المتّقي الهندي في كنز العمال ١١ : ٣١٨٨٤/٤٠٤ باختلاف يسير .

قال بعض أُمراء العرب لأعرابي رأى معه ناقة فأعجب بهـا : هل أَنْزَيْتَ عليها ؟ قال : نعم أضربتهـا أيّها الأمير ! قال : أضـربتها ؛ قـد أحسنت حين أضربتها ، نِعْمَ ما صنعت إذْ أضربتها ، فجعل يردّدها .

قال الراوي : فعلمت أنّه إنّما يريد أنْ يثقّف بها لسانه .

وسمعت أنا كوفياً يسألُ بدويّاً عن ماوان(٥٩) وقد شارفناها ، فقال : هي ميّهة . فقال الكوفي : أميه ممّـا كانت ؟ قـال : إي والله أموه ممّـا كانت . كأنّه يصحّحها عليه .

ورأيتُ الخَلْق في المسجـد الحرام يتـرادّون الكـلام في اللغـات الفصحى ، ويتعـادون منْ لـه في ميـدان البـلاغـة الخُـطا الفُسحى ، ويتذاكرون الكلمات التي تزيغ فيها الحاضرة(٦٠) عن السنن ولا ينقحونها من العُجَرِ(٦١) والأُبَن(٦٢) كأنّ أفواههم للحكمة ينابيع ، وهم على ذلك مطابيع .

هذا ، ولمّا سمعت العرب القرآن المجيـد مَلأت الـروعة قلوبهم ومَلَكَتْ نفوسهم ، وهزّ الاستعجاب مناكبهم ، وأنغض رؤوسهم ، وبقي أذلقهم لساناً وأعرقهم بيانـاً ، كالمحجـوج إذا أبكتته الحجّـة ، فأخـذته

---

(٥٩) ماوان : وادٍ فيه ماء بين الفقرة والربذة فغلب عليه الماء فسمّي بذلك الماء ماوان ، قال في المعجم : فأمّا ماوان السنور فليس بينه وبين مساكن العرب مناسبة ولعل أكثرهم ما يدري ما السنور : وهي قرية في أودية العلاة من أرض اليمامة ، أُنظر «معجم البلدان ٥ : ٤٥ ، مراصد الإطّلاع ٣ : ١٢٢٢» .

(٦٠) أي أهل الحضر لأنّهم مظنّة اللحن .

(٦١) العُجَر : جمع عجرة ، وهي العقدة في عود وغيره ، ويقال : في كلامه عَجْـرفيّة وتعجرف أي جفوة «أساس البلاغة ـ عجر ـ ٢٩٤» .

(٦٢) الأُبَن : العُقَد تكون في القسي تُفْسِدُها وتعاب بها «النهاية ـ ابن ـ ١ : ١٧» .

الـرجّة ، وكـالياسـر إذا أصبح مقمـوراً مقهوراً ، فقعـد مبهوتـاً مبهوراً ، وكالصريع إذا عنّ له من لا يبالي بصراعه ، وكالمرتبع[٦٣] إذا غلبه من لا يلتفت إلى ارتباعه ، ولقد قابلوه بأفصح كلامهم ، فقال منصفوهم : جَرَى الوَادي فَطَمَّ عَلَى القَرِيِّ[٦٤] ، ومن يعبأ بالعباء مع الوشي العبقري[٦٥]

وقال الوليد بن المغيرة المخزوميّ[٦٦] : والله لقد نظرت فيما قال هذا الرجل ، فإذا هو ليس بِشعْر ، وإنّ له لحلاوة ، وإنّ أعلاه لمثْمر ، وإنّ أسفله لمعذق[٦٧] ، وإنّه ليعلو وما يُعلى[٦٨] .

---

(٦٣) رَبْعُ الحجر وارتباعه إشالته ورفعه لإظهار القوة «النهاية ـ ربع ـ ٢ : ١٨٩» .

(٦٤) مثل سائر ، معناه : جرى سيل الوادى فطَمَّ ، أي دَفَنَ ، يقال : طمَّ السيلُ الركية : أي دفنها ، والقَرِيُّ : مجرى الماء في الروضة ، والجمع أقريه وقريان و«على» من صلة المعنى : أي أتى على القَرِيِّ ، يعني أهلكه بأنْ دفنه ، اُنظر «مجمع الأمثال ١ : ١٥٩/٨٢٣» .

(٦٥) الوشيُ من الثياب معروف ، والعبقري : الديباج ، اُنظر «الصحاح ـ وشي ـ ٦ : ٢٥٢٤ ، النهاية ـ عبقر ـ ٣ : ١٧٣» .

(٦٦) الوليد بن المغيرة بن عبدالله بن عمرو بن مخزوم ، أبو عبد شمس ، من قضاة العرب في الجاهلية ، ومن زعماء قريش ، ومن زنادقتها ، أدرك الإسلام وهو شيخ هرم فعاداه وقاوم دعوته ، ذكره ابن الأثير في الكامل تحت عنوان : ذكر المستهزئين ومن كان أشدّ الأذى للنبي (صلّى الله عليه وآله) ، وهو والد خالد بن الوليد ، هلك بعد الهجرة بثلاثة أشهر وهو ابن خمس وتسعين سنة ، ودفن بالحجون ، اُنظر «الكامل في التاريخ ٢ : ٧١ ، الأعلام ٨ : ١٢٢» .

(٦٧) أي له شعب وجذور ، وفي بعض المصادر : لمغدق ، وهو من الغدق أي الماء الكثير ، وفي بعضها الآخر : لعـذق ، والعذق : النخلة ، وهـو استعارة من النخلة التي ثبت أصلها .

(٦٨) ورد باختلاف في لفظه في دلائل النبوة ٢ : ١٩٨ ، تأريخ الإسلام : ١٥٥ ، السيرة النبوية ١ : ٢٨٩ ، الوفا بأحوال المصطفى : ٥٥ ، وأخرجه الحاكم النيسابوري في مستدركه ٢ : ٥٠٦ ، عن ابن عباس ، وقال : هذا حديث صحيح الاسناد على شرط البخاري ، ولم يخرجاه .

وبلغنا أنّ أعرابيّاً صلّى خلف ابن مسعود[٦٩] رضي الله عنه فتعتع في قراءته ، فقال الأعرابيّ : ارتبك الشيخ ، فلمّا قضى ابن مسعود صلاته ، قال : يا أعرابي إنّه والله ما هو من نسجك ولا من نسج آبائك ، ولكنّه عزيز من عند عزيز نزل ، وهو الحمّال ذو الوجوه ، والبحر الذي لا تنقضي عجائبه . قال الله لموسى عليه السّلام : إنّما مَثَل كتاب محمد في الكتب كمثل سقاء فيه لبن كلّما مَخضْته استخرجت زبده..

فحينما عجزوا عن المماتنة[٧٠] . فزعوا إلى المفاتنة ، ولمّا لم يقدروا على المقابلة أقبلوا على المقاتلة ، فكان فزعهم إلى شيء ، ليس من المُتحدّى فيه في شيء ، دليلاً قاطعاً على تمام المعجزة ، وشاهد صدق لصحة النبوّة بظهور المعجزة ، على أنّ عداوة المتحدي هي العجز بعينه ، والتقصير بذاته ، لأنّ كلّ ذي منقبة إذا توقّلَ[٧١] في مرتبة قد عجز عنها مدّعوها ، ولم يقدروا أنْ يطلعوها ، كان نتيجة عجزهم أن يشتملوا على الغيظ والضجر ، وقرينة تقصيرهم أنْ يقصدوه بالنكاية والضرر ، وأن يُقَشْوروه[٧٢] بالعصا ويرجموه بالحصا .

والذي طولبوا به فعجزوا عنه هو الإتيان بسورة لو كتبت بين السور ،

---

(٦٩) عبدالله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي ، أبو عبد الرحمن ، من صحابة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) السابقين إلى الإسلام ، وولي بعد وفاة النبي (صلّى الله عليه وآله) بيت مال الكوفة ، ثمّ قدم المدينة في خلافة عثمان ،فتوفي فيها عن نحو ستين عاماً في سنة٣٢ هـ .
أُنظر «الإصابة في تمييز الصحابة ٢ :٤٩٥٤/٣٦٨ ، تهذيب التهذيب ٦ : ٤٣/٢٤ ، معجم رجال الحديث ١٠ :٧١٦٠/٣٢٢ ، الأعلام ٤ :١٣٧» .

(٧٠) المماتنة : المعارضة في جدل أو خصومة «تاج العروس ـ متن ـ ٩ : ٣٤٠» .

(٧١) التَّوقلُ : الإسراع في الصعود «النهاية ـ وقل ـ ٥ : ٢١٦» .

(٧٢) قَشْوَرَه بالعصا : ضربه «القاموس المحيط ـ قشر ـ ٢ : ١١٧» .

لم تكنْ مشخلبة[٧٣] بين الدرر ، ولكنْ كواحدة منهنَّ في حسنها وبهائها ، ونورها وضيائها ، وبيانها الباهر ، وديباجها الفاخر ، حتّى لو عُرضتْ على صيارفة المنطق ونقّاده ، المميّزين زيوفه وجياده ، لقالوا هي منها بالقرب ، لم يقولوا ليس عليها أُبّهة دار الضرب ، والجهة التي أتاهم العجز عنها امتياز السورة عن هذه الأجناس ، التي تتقلّب في أيدي الناس ، من خطب يحبّرونها[٧٤] ، وقصائد يُسيّرونها ، ورسائل يسطّرونها ، كما أنّ كلّ واحد من هذه الأجناس له حيّز ، وبعضها عن بعض متميّز ، وكلّ مستبدّ بطريق خاصّ إليه ينتحي وإيّاه ينتهج ، ومِثال ومنوال عليه يحتذي وعليه ينتسج ، فلو تُحدّيَ الرجل بقصيدة شاعرة فجاء بخطبة باهرة أو رسالة نادرة ، أو تُحدّيَ بخطبة أو رسالة غرّاء فعارض بقصيدة حذّاء[٧٥] ، لم يكن على شاكلة التحدّي عاملاً ، ونُسب إلى قلّة التهدّي عاجلاً ، وتمثّلَ له بقوله :

شكونا إليه خراب السواد ... فحرّم فينا لحوم البقر
فكنّا كما قال من قبلنا ... أُريها السُّها[٧٦] وتُرِيني القمر[٧٧]

---

(٧٣) قال الليث : مشخلبة كلمة عراقية ليس على بنائها شيء من العربية ، وهي تتخذ من الليف والخرز أمثال الحلي «لسان العرب ـ شخلب ـ ١ : ٤٨٦» .

(٧٤) يقال حبَّرت الشيء تحبيراً إذا حسّنته «النهاية ـ حبر ـ ١ : ٣٢٧» .

(٧٥) الحذو : من أجزاء القافية ، حركة الحرف الذي قبل الردف ، يجوز ضمته مع كسرته ولا يجوز مع الفتح غيره ، قاله ابن منظور في «اللسان ـ حذا ـ ١٤ : ١٧٠» عن ابن سيده .

(٧٦) السُّها : كويكب صغير خفيّ الضوء في بنات نعش الكبرى ، والناس يمتحنون به أبصارهم «لسان العرب ـ سها ـ ١٤ : ٤٠٨» .

(٧٧) مثل سائر ، ذكره الميداني في مجمع الأمثال ١ : ٢٩١ / ١٥٤٥ ، تحت عنوان «أُريها اسْتَهَا وتريني القمر» وذكر قصته ، وقال : وبعضهم يرويه «أُريها السُّها وتريني القمر» ، يضرب لمن يغالط فيما لا يخفى .

ذلك أنّ الشعر كلام ذو وزن وقَرِيّ[٧٨] ، وقافية ورَوِيّ ، أكثره تمويهات وتخاييل ، وأكاذيب وأباطيل ، ومن ثمّ سمّوه سحراً ، وزعموا أن لكلّ شاعر جنيّاً ، وأنّه معه رئيًا ، وأنّ ذلك الجنّيّ يخطره بجنانه ويلقّنه إيّاه ويلقيه على لسانه .

والخطب والرسائل لا يمسّ طنب القريض أطنابها ، ولا تقرع يده أبوابها ، والسورة أبعد شوطاً منها في التميّز ، وأعلى فوقاً في المباينة والتحيّز ، بديباجتها الخاصّة وذوقها ونداثها على أن لا منظوم بطوقها ، وعلى أنّها ليست من القريحة ، المعتصر لها ثرى السجيحة[٧٩] ، المستعان فيه بالرَوِيَّة والفِكْر ، المستملى من لسان الزُّكْن[٨٠] والحِجْر[٨١] ، وأنّ مَثَلها معه مَثَل الحيوانَ الذي هو تسوية الله وتقديره ، مع التماثيل التي هي نقش المصوّر وتصويره ، عليها ضياء الجلالة الربانيّة ، وسيمياء[٨٢] الكتب السماويّة ، وأُبّهة المسطور في اللَّوح المنزّل في اللُّوح[٨٣] وآئين[٨٤] الملقن منه وهو لسان الروح ، كأنّك إذا قرأتها مشاهد

---

(٧٨) قال الزمخشري وغيره : أقراء الشعر : قوافيه التي يختم بها ، كأقراء الطهر التي ينقطع عندها ، الواحد قَرْءٌ ، وقُرْءٌ ، وقَرِيّ ، لأنّها مقاطع الأبيات وحدودها . «النهاية ـ قرا ـ ٤ : ٣٢» .

(٧٩) السجيحة : الطبيعة «الصحاح ـ سجح ـ ١ : ٣٧٣» .

(٨٠) الزُّكْن والإزكان : الفطنة ، والحدس الصادق . «النهاية ـ زكن ـ ٢ : ٣٠٧» .

(٨١) الحِجْر: العقل واللبّ ، لإمساكه ومنعه وإحاطته بالتمييز ، وفي التنزيل : هل في ذلك قسم لذي حِجْر . «لسان العرب ـ حجر ـ ٤ : ١٧٠» .

(٨٢) السّومةُ والسّيمة والسيماء والسّيمياء : العلامة . «لسان العرب ـ سوم ـ ١٢ : ٣١٢» .

(٨٣) اللّوح الأول بالفتح : هو اللّوح المحفوظ ، والثاني بالضم : الهواء . «لسان العرب ـ لوح ـ ٢ : ٥٨٥» .

(٨٤) آئين : كلمة فارسية بمعنى الزينة ، استعملها الجاحظ في البخلاء في قصة محمد بن أبي =

سُبُحات(٨٥) وجه فاطرك ، ومعاين لملائكة عرشه بناظرك .

عن جعفر الصادق(٨٦) رضي الله تعالى عنه : والله لقد تجلّى الله تعالى لخلقه في كلامه ولكنّهم لم يبصروه(٨٧) .

= المؤمل فيما حكاه عن لسانه : وكانوا يعلمون أنّ إحضار الجدي إنّما هو شيء من آئين الموائد الرفيعة .

وفي تاريخ العتبي عند شرح هذا البيت في رثاء الصاحب بن عباد :

لم يبق للجود رسم منذ بنت ولا ... للسؤدد اسم ولا للمجد آئين

قال : وكأنّه تعريب آئين ، وهو أعواد أربعة تنصب في الأرض وتزيّن بالبسط والستور والثياب الحسان ، ويكون ذلك في الأسواق والصحارى وقت قدوم ملك .

أقول : هو قوس النصر في مصطلح عصرنا هذا «هـ م» .

(٨٥) سُبُحات الله : جلاله وعظمته ، وهي في الأصل جمع سُبحة ، وقيل : أضواء وجهه «النهاية ـ سبح ـ ٢ : ٣٣٢» .

(٨٦) أبو عبدالله جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام ، سادس أئمة أهل البيت (عليهم السلام) ، وإليه ينمى المذهب الجعفري ، لُقّب بالصادق لصدق حديثه ، ولد في ١٧ ربيع الأول سنة ٨٠ هـ ، أمره في الشرف والفضل والعلم والعصمة أجلّ من أن يذكر في سطور ، قال ابن حجر : «نقل الناس عنه من العلوم ما سارت به الركبان وانتشر صيته في البلدان» وجمع أصحاب الحديث أسماء الرواة عنه من الثقات على اختلافهم في الآراء والمقالات فكانوا أربعة آلاف رجل ، ذكرهم الحافظ ابن عقدة في كتاب رجاله ، وذكر مصنّفاتهم فضلاً عن غيرهم ، استشهد عليه السلام مسموماً لعشر سنين خلت من خلافة المنصور العباسي سنة ١٤٨ هـ ، ودفن بالبقيع مع أبيه وجدّه عليهم السلام .

أُنظر «أعيان الشيعة ١ : ٦٥٩ ، حلية الأولياء ٣ : ١٩٢ ، وفيات الأعيان ١ : ١٣١/٣٢٧ ، الجرح والتعديل ٢ : ١٩٨٧/٤٨٧ ، رجال صحيح مسلم ١ : ٢٢١/١٢٠ ، تهذيب الكمال ٥ : ٩٥٠/٧٤ ، ميزان الاعتدال ١ : ١٥١٩/٤١٤ ، تهذيب ٢ : ١٥٦/٨٨ ، سير أعلام النبلاء ٦ : ١١٧/٢٥٥» .

(٨٧) رواه الشهيد الثاني في كتابه أسرار الصلاة : ٣٦ . ونقله عنه الفيض الكاشاني في المحجة البيضاء ٢ : ٢٤٧ ، وفيها : ولكنهم لا يبصرون . =

والمعاني التي تستودع الكتب والرسائل ، من معانيه ومؤدّياته على مراحل ، وقد انطوت رصانة هذه المعاني والمقاصد تحت سلس الألفاظ العذبة الموارد ، مع تكاثر نكت علم البيان وفِقَره ، ومحاسن حجوله وغرره ، وغرائب وَشْيِهِ وأعلام حِبَره ، تنثال ارسالاً على الناظر البصير ، وتزدحم أسراباً على الناقد النحرير .

وأنا اضرب لك سورة الكوثر ـ وهي أقصر السّور ـ مثالاً أنصبه بين يديك ، وأجعله نَصْبَ عينيك ، فأنت أكيس الأكياس ، ومعك نُهْيَة(٨٨) كشعلة المقباس ، تكفيك الرمزة وإن كانت خفيّة والتنبيهة وإن كانت غير جليّة ، فكيف إذا ذللت بأنْور من وضح الفلق ، وأشهر من شِيةِ(٨٩) الأبلق .

أقول وبالله التوفيق : ورد على رسول الله صلّى الله عليه وآله عن عدوّ الله العاص بن وائل(٩٠) ما يهدم مقاله ، ويهزم محاله(٩١) ، وينفّس

= وفي المصدرين أيضاً ، عنه عليه السلام : وقد سألوه عن حالة لحقته في الصلاة حتّى خرّ مغشياً عليه فلمّا أفاق قيل له في ذلك ، فقال : ما زلت أُردّد الآية على قلبي وعلى سمعي حتى سمعتها من المتكلم بها ، فلم يثبت جسمي لمعاينة قدرته .

قال الفيض : وفي مثل هذه الدرجة تعظم الحلاوة ولذّة المناجاة .

(٨٨) النُّهْيَة : العقل «لسان العرب ـ نهى ـ ١٥ : ٣٤٦» .

(٨٩) الشِّيَةُ : كلّ لون يخالف معظم لون الفرس وغيره ، وأصله من الوشي . «النهاية ـ شيه ـ ٢ : ٥٢٢» .

(٩٠) العاص بن وائل بن هاشم السهمي ، من قريش ، أحد الحكام في الجاهلية ، كان نديماً لهشام بن المغيرة وأدرك الإسلام ، وظلّ على الشرك ويعدّ من المستهزئين ومن الزنادقة الذين ماتوا كفّاراً وثنيين ، وهو والد عمرو بن العاص صاحب معاوية . «الأعلام٣ : ٢٤٧» .

(٩١) يقال : رجل يماحل : أي يدافع ويجادل ، من المِحال ، بالكسر ، وهو الكيد ، وقيل : المكر ، وقيل : القوة والشدة ، أنظر «النهاية ـ محل ـ ٤ : ٣٠٣» .

عن رسوله ، وينيله نهاية سؤله ، فأوحى إليه سورة على صفة إيجاز واختصار ، وذلك ثلاث آيات قصار ، جمع فيها ما لم يكن ليجتمع لأحد من فرسان الكلام ، الذين يخطمونه بالخِطام[٩٢] ويقودونه بالزمام ، كسحبان[٩٣] وابن عجلانٍ ، وأضرابهما من الخطباء المصاقع والبلغاء البواقع[٩٤] الذين تفسّحت في هذا الباب خطاهم ، وتنفّس في ميادينه مداهم .

أُنظر إلى العليم الحكيم كيف حذا ثلاث الآيات على عدد المُسلّيات ، من إجلال محل رسول الله وإعلاء كعبه ؛ وإعطائه أقصى ما يؤمّله عند ربه[٩٥] ، ومن الإيعاز إليه أن يقبل على شأنه من أداء العبادة بالإخلاص[٩٦] ، وأن لا يحفل بما ورد عليه من ناحية العاص ، ولا يحيد عن التفويض إليه محيدا ، فلا يذره واثباً وحيداً ، ومن الغضب له بما فيه مسلاته من الكرب ، من إلصاق عار البتر بالكلب[٩٧] ، والإشعار بأنْ كان عدوّ الله بوراً ، ولم يكن إلاّ هو صنبوراً[٩٨] .

---

(٩٢) الخِطَامُ : الزمام . وخَطَمْتُ البعير : زممته «الصحاح ـ خطم ـ ٥ : ١٩١٥» .

(٩٣) سحبان بن زفر بن اياس الوائلي ، من باهلة ، خطيب يضرب به المثل في البيان ، يقال : «أخطب من سحبان» و«أفصح من سحبان» اشتهر في الجاهلية وعاش زمناً في الإسلام وكان إذا خطب يسيل عرقاً ولا يعيد كلمة ، أسلم في زمن النبي ولم يجتمع به .
«الإصابة ٢ : ١٠٩/٣٦٦٣، بلوغ الارب ٣ : ١٥٦ ، مجمع الأمثال ١ : ٢٤٩ ، الأعلام ٣ : ٧٩» .

(٩٤) الباقعة : الرجل الداهية . «لسان العرب ـ بقع ـ ٨ : ١٩» . .

(٩٥) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿إنّا أعطيناك الكوثر﴾ .

(٩٦) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿فصلِّ لربّك وانحر﴾ .

(٩٧) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿إنّ شانئك هو الأبتر﴾

(٩٨) أي أبتر لا عقب له «النهاية ـ صنبر ـ ٣ : ٥٥» .

ثمّ ، انظر كيف نُظّمت النظم الأنيق ، ورُتّبت الترتيب الرشيق ، حيث قُدّم منها ما يدفع الدعوى ويرفعها ، وما يقطع الشبهة ويقلعها ، ثمّ لما يجب أن يكون عنه مسبّبا ، وعليه مترتّبا ، ثمّ ما هو تتمّة الغرض من وقوع العدو في مُغَوَّاته[٩٩] التي حفر ، وصلْيه بحرّ ناره التي سعر ، ومن الشهادة على إلصاقه بالسليم عيبه ، وتوريكه على البريء ذنبه[١٠٠] .

وتأمّل كيف أنّ من أُسند إليه إسداء هذه العطية ، وإيتاء هذه الموهبة السنيّة ، هو ملك السماوات والأرض ، ومالك البسط والقبض ، وكيف وسّع العطية وكثّرها ، وأسبغها ووفّرها ، فدلّ بذلك على عظم طرفي المعطى ، وعلى جَلال جنبي المسدي والمسدى ، وقد علم أنّه إذا كان المُعطي كبيراً ، [كان] العطاء كثيراً ، فيالها من نعمة مدلول على كمالها ، مشهود بجلالها .

وأراد بالكوثر أولاده إلى يوم القيامة من أُمّته ، جاء في قراءة عبدالله : ﴿**النبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أبوهم وأزواجه أُمّهاتهم**﴾[١٠١] وما أعطاه الله في الدارين من مزايا الاثرة والتقديم ، ووضع

(٩٩) مُغَوَّاة : حفرة كالزبية تحفر للذئب ، ويجعل فيها جدي إذا نظر إليه سقط عليه يريده . ومنه قيل لكل مهلكة مُغَوَّاة «النهاية ـ غوا ـ ٣ : ٣٩٨» .

(١٠٠) ورَّكَ عليه ذنبه : حمله عليه «أساس البلاغة ـ ورك ـ ٤٩٧» .

(١٠١) قال المصنّف في الكشاف ٣ : ٢٥١ : وفي قراءة ابن مسعود : ﴿**النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم**﴾ ، وقال القرطبي في الجامع لأحكام القرآن ١٤ : ١٢٣ : ثمّ إنّ في مصحف أُبَيّ بن كعب ﴿**وأزواجه أُمّهاتهم هو أب لهم**﴾ وقرأ ابن عباس ﴿**من أنفسهم وهو أب [لهم] وأزواجه [أُمّهاتهم]**﴾ .
وقال الطبرسي في مجمع البيان ٤ : ٣٣٨ : وروي أنّ النبي صلّى الله عليه وآله لمّا أراد غزوة تبوك ، وأمر الناس بالخروج ، قال قوم : نستأذن آباءنا وأُمّهاتنا فنزلت هذه الآية .
وروي عن أُبيّ وابن مسعود وابن عباس أنّهم كانوا يقرؤون ﴿**النبي أولى بالمؤمنين من** =

في يديه من نواصي التفضيل والتكريم ، والثواب الذي لم يعرف إلاّ هو كنهه ، ولم يعط إلاّ الملك شبهه ، ومن جملة الكوثر ما اختصّه به من النهر الذي حاله المسك(١٠٢) ، ورَضْراضهُ التُّوم(١٠٣) ، وعلى حافّاته من أواني الذهب والفضّة ما لا يعاده النجوم .

ثمّ تبصّر كيف نكت في كلّ شيء تنكيتا ، يترك المنطيق سكيتا ، حيث بنى الفعل على المبتدأ فدلّ على الخصوصيّة ، وجمع ضمير المتكلّم فأذن بعظم الربوبيّة ، وصدّر الجملة المؤخّرة على المخاطب أعظم القِسم ، بحرف التأكيد الجاري مجرى القَسم ، ما ورد الفعل بلفظ الماضي ، على أنّ الكوثر لم يتناول عطاء العاجلة دون عطاء الآجلة ، دلالة على أنّ المتوقّع من سَيْب(١٠٤) الكريم في حكم الواقع ، والمترقّب من نعمائه بمنزلة الثابت الناقع . وجاء بالكوثر محذوف الموصوف ، لأنّ المثبت ليس فيه ما في المحذوف من فرط الإبهام والشياع ، والتناول على طريق الاتّساع ، واختار الصفة المؤذنة بافراط الكثرة ، المترجمة عن المعطيات الدثرة ، ثمّ بهذه الصفة مُصدّرة باللاّم المعرفة ، لتكون لما يوصف بها شاملة ، وفي إعطاء معنى الكثرة كاملة .

وعقّب ذلك بفاء التعقيب ، مستعارة لمعنى التسبيب ، يشتقّها معنيان ، صح تسبيب الإنعام بالعطاء الأكثر ، للقيام بما يضاهيه من الشكر الأوفر ، وتسليمه لترك المبالاة بقول ابن وائل ، وامتثال قول الله عزّ من

= أنفسهم وأزواجه أمّهاتهم وهو أب لهم﴾ وكذلك هو في مصحف أُبيّ ، وروي ذلك عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام .

(١٠٢) حالُه المسك : أي طينه المسك . «النهاية ـ حول ـ ١ : ٤٦٤» .

(١٠٣) الرَّضْراض : الحصى الصغار ، والتوم : الدر . «النهاية ـ رضرض ـ ٢ : ٢٢٩» .

(١٠٤) السيب : العطاء . «الصحاح ـ سيب ـ ١ : ١٠٥» .

قائل ، وقصد باللامين[١٠٥] التعريف بدين العاص وأشباهه ، ممّن كانت عبادته ونحره لغير إلهه ، وتثبيت قدمي رسول الله على صراطه المستقيم ، وإخلاصه العبادة لوجهه الكريم ، وأشار بهاتين العبادتين إلى نَوْعَي العبادات ، وصِنْفَي الطاعات ، أعني الأعمال البدنيّة التي الصلاة إمامها ، والماليّة التي نحر البدن سنامها ، ونبّه على ما لرسول الله من الاختصاص بالصلاة التي جعلت لعينه قرّة[١٠٦] وبنحر البدن التي كانت همّته بها المُشْمَخِرَّة .

روينا بالإسناد الصحيح أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أهدى مائة بدنة فيها جمل لأبي جهل في أنفه بُرَة[١٠٧] من ذهب[١٠٨] .

وحذف اللام الأُخرى لدلالته عليها بالأُولى ، مع مراعاة حقّ التسجيع ، الذي هو من جملة صنعة البديع ، إذا ساقه قائله مساقاً مطبوعاً ، ولم يكن متكلّفاً أو مصنوعاً ، كما ترى اسجاع القرآن وبُعدها عن التعسّف ، وبراءتها من التكلّف .

وقال : ﴿لربك﴾ ، وفيه حسنان ، وروده على طريقة الالتفات[١٠٩]

---

(١٠٥) أي بلام ﴿لربك﴾ ، واللّام المحذوفة في قوله ﴿وانحر﴾ أي وانحر له ، كما سيصرّح بذلك«هـ م» .

(١٠٦) إشارة إلى قوله صلّى الله عليه وآله : حببت إليّ من الدنيا ثلاث : النساء ، والطيب ، وجعلت قرّة عيني في الصلاة . «الخصال : ٢١٨/١٦٥» .

(١٠٧) البُرَة : حلقة تجعل في لحم الأنف ، وربّما كانت من شعر . «النهاية ـ بره ـ ١ : ١٢٢» .

(١٠٨) أخرجه البيهقي في سننه ٥ : ٢٣٠ .

(١٠٩) قال ابن حمزه العلوي في الطراز ٢ : ١٣٢ : الالتفات : هو العدول من أُسلوب في الكلام إلى أُسلوب آخر مخالف للأول ، وهذا أحسن من قولنا : هو العدول من غيبة إلى خطاب ، ومن خطاب إلى غيبة ، لأنّ الأول يعمّ سائر الالتفاتات كلّها ، والحدّ الثاني إنّما =

التي هي أُمّ من الأمّهـات ، وصرف الكـلام عن لفظ المضمر إلى لفظ المظهر ، وفيه إظهار لكبـرياء شـأنه ، وانـافة لعـزّة سلطانه ، ومنـه أخذ الخلفـاء قـولهم : يـأمـرك أميـر المؤمنين بـالسمـع والـطاعـة ، وينهـاك أمير المؤمنين عن مخالفة الجماعة .

وعن عمر بن الخطاب (رض) أنّه حين خطب الأزديّة أتى أهلها فقال لهم : خطب إليكم سيّد شباب قريش مـروان بن الحكم ، وسيّد أهـل المشرق حسن بن بجـيلة ويخطب إليكم أمير المؤمنين ـ عنى نفسه ـ .

وعلم بهذه الصفة أنّ من حقّ العبـادة أن يخصّ بها العبـاد ربّهم ومالكهم ، ومن يتولّى معايشهم ومهالكم ، وعرّض بخطأ من سفه نفسه ونقض قضيّة لُبّه ، وعبد مربوباً وترك عبادة ربّه .

وقال : ﴿إنّ شانئك﴾ فعلّل الأمر بالاقبال على شانه ، وقلّة الاحتفال بشنآنه ، على سبيل الاستئناف ، الذي هو جنس حسن الموقع رائعه ، وقد كثرت في التنزيل مواقعه ، ويتّجه أن يجعلها جملة للاعتراض ، مرسلة إرسال الحكمة لخاتمة الأغراض ، كقوله تعالى : ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَأْجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلأَمِينُ﴾(١١٠) . وعنى بالشانىء السهميَّ المرميَّ بسهمـه ، وإنّما ذكره بصفته لا باسمه ، ليتناول كلّ من كان في مثل حاله ، من كيده بدين الحق ومحاله ، وفيـه أنّه لم يتـوجّه بقلبـه إلى الصدق ، ولم يقصـد به الافصـاح عن الحق ، ولم ينطق إلّا عن الشنـآن الذي هـو تـوأم البغي والحسد ، وعن البغضاء التي هي نتيجة الغيظ والحرد(١١١) .

= هو مقصور على الغيبة والخطاب لا غير ، ولا شكّ انّ الالتفات قد يكون من الماضي إلى المضارع وقد يكون على عكس ذلك فلهذا كان الحدّ الأول هو أقوى دون غيره .

(١١٠) سورة القصص ٢٨ : ٢٦ .

(١١١) الحرد : الغضب . «تاج العروس ـ حرد ـ ٢ : ٣٣٤» .

وكـذلك وسمـه بما ينبىء عن المقت الأشـدّ ، ويـدلّ على حنق الخصم الأَلدّ ، وعرف الخبر ليتمّ له البتر ، كأنّه الجمهور(١١٢) الذي يقال لـه الصنبور ، وأقحم الفصـل لبيـان أنّـه المعيّن لهـذه النقيصـة ، وأنّـه المشخّص لهـذه الغميصة(١١٣) ، وذلـك كلّه مع علوّ مـطلعهـا ، وتمـام مقطعها(١١٤) ، ومجاوبة عَجْزها لهَاديتها(١١٥) ، وسَبِيبها(١١٦) لناصيتهـا ، واتّصافها بما هو طراز الأمر كلّه من مجيئها مع كـونها مشحـونة بـالنكت الجلائل ، مكتنزة بالمحاسن غير القلائل ، خـالية من تصنّـع من يتناول التنكيت ، وتعمّل من يتعاطى بمحاجّته التبكيت(١١٧) ، كـأنّها كـلام من يرمي به على عَواهنه ، ولا يتعمّد إلى إبلاغ نكته ومحاسنـه ، ولا يلقاك ذلك إلاّ في كلام ربّ العالمين ، ومدبّر الكلام والمتكلّمين .

فسبحان مَنْ لو أنزل هذه الواحدة وحدها ، ولـم ينزل ما قبلها وما بعدها ، لكفى بها آية تغمر الأذهان ، ومعجزة توجب الإذعان ، فكيف بما أنزل من السبع الطوال ، وما وراءها إلى المُفَصَّل(١١٨) ، والمُفصّل ، يالها من معجزة كم معجزات في طيّها ، عند كلّ ثلاث آيات تقرّ الألسن بعيّها ، لو أراد الثقلان تسلية المغيظ المحنق ؛ لأخذت من أفاصحهم بالمخنق ،

---

(١١٢) كذا .

(١١٣) يقال : اغتمصت فلاناً اغتماصاً : احتقرته «لسان العرب ـ غمص ـ ٧ : ٦١» .

(١١٤) مقاطع القرآن : مواضع الوقوف .

(١١٥) في الحديث : «طلعت هوادي الخيل» يعني أوائلها ، والهادي والهادية : العنق ؛ لأنّها تتقدم على البدن ، ولأنّها تهدي الجسد . «النهاية ـ هدا ـ ٥ : ٢٥٥» .

(١١٦) السَّبِيبُ : شَعْر الذنب «لسان العرب ـ سبب ـ ١ : ٤٥٩» .

(١١٧) بكته بالحُجة أي غلبه «لسان العرب ـ بكت ـ ٢ : ١١» .

(١١٨) المُفَصَّل من القرآن السبع الاخير ، وذلـك للفصل بـين القصص بالسـور القصار ، والفواصل أواخر الآي «مفردات ألفاظ القرآن ـ فصل ـ ٣٨١» .

إنْ همّوا بإنشاء سورة توازيها ، وثلاث آيات تدانيها . هيهات قبل ذلك يشيب الغراب ، ويسيب الماء كالسراب .

ودع عنك حديث الصرفة(١١٩) ، فما الصرفة إلاّ صُفْرَة(١٢٠) من النظّام ، وفَهَّة(١٢١) منه في الإسلام ، ولقد ردّت على النظّام صُفْرته ، كما ردّت عليه طفرته ، ولو صحّ ما قاله لوجَبَ في حكمة الله البالغة ، وحجّته الدامغة أن ينزّله على أركّ نمط وأنـزله ، وأفسل(١٢٢) أُسلوب وأسفله ، وأعراه من حلل البلاغة وحليّها ، وأخلاه من بهيّ جواهر العقول وثريّها ، ثمّ يقال لولاة أعلى الكلام طبقة وأمتنه ، ولأرباب آنقه طريقة وأحسنه : هاتوا بما ينحو نحوه، وهلمّوا بما يحذوه، فيعترضهم الحجز، ويتبيّن فيهم العجز، فيقال قد استصرفهم الله عن أهون ما كانوا فيه ماهرين، وأيسر ما كـانوا عليـه قادرين، ألم تـرهم كيف كانـوا يعنقون(١٢٣)في المِضمـار فـوقفـوا، وينهبـون الحلبة بخـطاهم فقطفـوا(٢٤)، ولا يقال الله قـادر على أنْ يـأتي بمـا هـو أفصح وأفصح ، وأملح لفظاً ومعنى وأملح ، فهلاّ أتى بذلك المتناهي في

---

(١١٩) الصرفة : هي ممّا ذهب إليه النظّام المعتزلي في إعجاز القرآن ، وهو صرف الدواعي عن المعارضة ، ومنع العرب عن الاهتمام به جبراً وتعجيزاً ، حتّى لو خلاّهم سبحانه لكانوا قادرين على أن ياتوا بسورة من مثله بلاغة وفصاحة ونظماً . أُنظر «الملل والنحل ١ :٥٨» .

(١٢٠) يقال : إنّه لفي صُفْرَة ، للّذي يعتريه الجنون ، إذا كان في أيام يزول فيها عقله ، لأنهم كانوا يمسحونه بالزعفران . «الصحاح ـ صفر ـ ٢ : ٧١٤» .

(١٢١) الفَهَّة : السقطة والجهلة . يقال : فَهَّ الرجل يَفَهُّ فَهاهَة وفهّة ، فهوفَهٌّ وفهيـهٌ : إذا جاءت منه سقطة من العيّ وغيره «النهاية ـ فهه ـ ٣ : ٤٨٢» .

(١٢٢) الفسل : الرديء من كل شيء . «مجمع البحرين ـ فسل ـ ٥ : ٤٤٠» .

(١٢٣) يعنقون : أي يسرعون . أُنظر «لسان العرب ـ عنق ـ ١٠ : ٢٧٣» .

(١٢٤) القِطاف : تقارب الخطو في سرعة ، من القطف : وهو القـطع . «النهايـة ـ قطف ـ ٤ : ٨٤» .

الفصاحة والمتمادي في الملاحة ، فإنّ الغرض اتّضاح الحُجّة وقد اتّضحت ، وافتضاح الشُبهة وقد افتضحت ، وإذا حصل الغرض فليس وراءه معترض .

وأمّاإغفال السَلفِ لِمَا نحن بصدده ، وإهمالهم الدلالة على سُننه ، والمشي على جَدَدِه[١٢٥] ، فلأنّ القومَ كانوا أبناء الآخرة ، وإنْ نَشأوا في حِجْر هذه الغادرة ، ديدنهم قصر الآمال ، وأخذ العلوم لتصحيح الأعمال ، وكانوا يَتوخَون الأهمّ فالأهمّ والأولَى فالأولَى والأزلف فالأزلف من مرضاة المولى .

ولأنّهم كانوا مشاغيل بجرّ أعباء الجهاد ، مُعَنّين[١٢٦] بتقويم صفات أهل العناد ، مَعْكُوفي الهِمَم على نشر الأعلام لنصرة الإسلام ، فكان ما بُعث به النبيّ عليه الصلاة والسلام لتعليمه وتلقينه ، وأُرسل للتوقيف عليه وتبيينه ، أهمّ عندهم ممّا كانوا مطبوعين على معرفته ، مجبولين على تبيّن حاله وصفته ، وكان إذ ذاك البيان غضّاً طريّاً ، واللّسان سليماً من اللكنة بريّاً ، وطُرق الفصاحة مسلوكة سائرة ، ومنازلها مأهولة عامرة ، وقد مهّد عذرهم تعويلهم على ما شاع وتواتر ، واستفاض وتظاهر ، من عجز العرب وثبات العلم به ورسوخه في الصدور ، وبقائه في القلوب على ممرّ العصور .

وبعد انقراض أُولئك العرب ، المالئة دَلْوَ البلاغة إلى عَقْدِ

---

(١٢٥) الجَدَدُ : الأرض الصلبة ، وفي المثل : «من سلك الجدد أمِنَ العثار» . «الصحاح ـ جدد ـ ٢ : ٤٥٢» .

(١٢٦) مُعَنّين : أي متعبين . أُنظر «لسان العرب ـ عنن ـ ١٣ : ٢٩٠» .

الكَرَبِ(١٢٧) ، وبقاء رباعها(١٢٨) بغير طَلَلٍ(١٢٩) ورَسْم(١٣٠) ، وذهابها ذهاب جَدِيس وطَسْم(١٣١) ، لَمْ يَبْقَ مِنْ هـذا العِلْم إلاّ نَحـو الغراب الأعصم(١٣٢) ، والنُّكْتَة(١٣٣) البيضاء في نقبة الأدهم(١٣٤) ، وجملة تلك البقيّة قد اتّبعوا سنن الأوّلين ، وكانوا على عجز العرب معوّلين ، ولم يقولوا كم بين إيمان السّحار وبين إيمان النّظار ، ثمّ أُدرج هٰذا العلم تحت طيّ النسيان ، كما يدرج الميت في الأكفان .

---

(١٢٧) مثل مأخوذ من قول الفضل بن عباس بن عتبة بن أبي لهب حيث يقول :

مَن يُسَاجِلْني يُسَاجِلْ ماجداً　　يملأ الدلو إلى عَقْدِ الكَرَبْ

وهو الحبل الذي يشدّ في وسط العَرَاقي ثمّ يثنى ، ثم يثلث ، ليكون هو الذي يلي الماء فلا يعفن الحبل الكبير . يُضرب لمن يبالغ فيما يلي من الأمر أُنظر «مجمع الأمثال٢ : ٤٢١/ ٤٧١٥» .

(١٢٨) الرَّبع : المنزل ودار الإقامة ، وربع القوم مَحِلَّتُهم ، والرِّباع جمعه «النهاية ـ ربع ـ ٢ : ١٨٩» .

(١٢٩) الطَلَلُ : ما شخص من آثار الدار والجمع أطلال وطلول . «الصحاح ـ طلل ـ ٥ : ١٧٥٢» .

(١٣٠) الرَسْمُ : الأثر ، أنظر «مجمع البحرين ـ رسم ـ ٦ :٧٢» .

(١٣١) جَدِيس : قبيلة من العرب العاربة البائدة ، كانت مساكنهم اليمامة والبحرين ، وكان يجاورهم طَسْم ، وهي قبيلة من العرب العاربة أيضاً ، تنتسب إلى طَسْم بن لاوذ بن إرم ابن سام بن نوح ، وقد انقرضت . أُنظر «معجم قبائل العرب١ : ١٧٢و٢ : ٦٨٠ ، ومصادره» .

(١٣٢) الغراب الأعصم ، الذي في جناحه ريشة بيضاء لأنّ جناح الطائر بمنزلة اليد له . « الصحاح ـ عصم ـ ٥ : ١٩٨٦ » .

(١٣٣) النُّكْتَة ، بالضمّ : النقطة . «القاموس المحيط ـ نكت ـ ١ : ١٥٩» .

(١٣٤) الدُّهْمَةُ : السواد . يقال : فرس أدهم ، وبعير أدهم ، وناقة دهماء ، إذا اشتدت وُرْقَته حتّى ذهب البياض الذي فيه . «الصحاح ـ دهم ـ ٥ : ١٩٢٤» .

ولولا أنّ الله أوزعني أنْ أنفض عليه لمّتي(١٣٥) ، وألهمني أنْ أنهض إليه بهمّتي ، حتّى أنفقت على النظر فيه شبابي ، ووهبت له أمري ، وكانت إجالة الفكر في غوامضه دهري ، لم تسمع من أحد فيه همساً ، ولم تلق من ينبس منه بكلمة نبساً ، والله أسأل أنْ يهديني سُبل الإصابة ، ويثيبني على ذلك أحسن إثابة ، فما نويت بما نويت بما لقيت فيه من عرق الجبين ، إلّا التوصّل إلى ما فيه من ثلج اليقين ، وإلّا استبانة حجّة الله وبرهانه ، واستيضاح أنوار قرآنه ، وأنّه يوفّقني للخير وطلبه ، وأن ينظمني في زمرة أهله ويختم لي به ـ تمّت .

(١٣٥) اللّمّة : الهمّة ، والخطرة تقع في القلب «النهاية ـ لمم ـ ٤ : ٢٧٣» .
هوامش إعجاز سورة الكوثر من ١ ـ ١٣٩

* الفهارس العامة

١ ـ فهرس الآيات القرآنية

٢ ـ فهرس الأحاديث

الحديث	الصفحة
أنا أفصح العرب بيد أني من قريش، واسترضعت في سعد بن بكر، فأنّى يأتيني اللحن	٤٧
خير اللسان العربي	٤٦
والله لقد تجلى الله تعالى لخلقه في كلامه ولكنهم لم يبصروه	٥٣

٣ ـ فهرس الآثار

٤ ـ فهرس الاعلام